قصة طويلة

الليلك الأبيض

للكاتب السوفياتي:
يوري نجيبين

ترجمة: رنا ادريس

كان صيف هذه السنة غريباً في منطقة «تانبوف». فشجر الكرز لم يزهر حتى منتصف الصيف، والليلك طال أكثر من ذلك. لم يحدث شيء من هذا القبيل أبداً في ذاكرة سكان «إيفانوفكا» القدماء التي هي ملك عائلة «ساتين» الموسكوية المضيافة. في ذلك الحين، اجتمعت هناك ثلاث عائلات تربطهنّ صلة قرابة: عائلة «ساتين» و«سكالون» وعائلة أستاذ معهد موسكو «زيلوتي». ولقد التجأ أيضاً «قريب الجميع»، «سريوجا رخمانينوف» البالغ من العمر الثامنة عشرة وهو عازف بيانو وتلميذ موهوب لـ «زيلوتي». كان يقضي السنة الأخيرة في المعهد. وكان وجود هذا القريب ــ الطويل القامة والبدين، الكئيب والحالم تارةً والمرح واللامبالي كالطفل طوراً ــ بمثابة مفاجأة للآنسات الرائعات من عائلة «سكالون»، «تاتوتشا» و«ليودميلا» و«فروتشا». فهي لا تدري كيف تتفاعل مع هذه المفاجأة بعد. لكن هناك وقتاً كافياً لتتوضح الأشياء أمامها.

وفي ليلة ما، بعد عاصفة هوجاء، تفتّح فجأة الليلكُ فخر المنطقة: الليلك البنفسجي الفارسي الأصل، الصغير الناعم الرائحة، وليلك هنغاريا الكبير، ذو العناقيد الثقيلة والبنفسجية وليلك روسيا الأبيض، الأغزر الشبيه بفستان العروس. وقد أضاء الحقل المسكون بالليلك المزدوج الزهور، شعلة صغيرة أرجوانية اللون على أحد العناقيد متأثراً للمرة الأولى بهذا الازهرار المفاجيء.

عندما ركضت «فيروتشا سكالون»، البالغة الخامسة عشرة، إلى الحديقة في ساعة مبكرة جداً من الصباح ــ وكانت مربيتها تتطلع إلى أجمل أحلامها الصباحية ــ صرخت «آه»! وضمّت يديها إلى صدارها لشدة اندهاشها بغزارة الليلك هذه. أصيبت بدوار وأخذت تغطس في الليلك كما في النهر، ناسية كل شيء. وقد بُلِلت من رأسها حتى قدميها. كانت العناقيد الثقيلة مليئة بقطرات عاصفة الأمس.

أجبر صوت غليظ داخل الأغصان «فروتشا» على الجمود خوفاً. وأحسّت بقلبها ينبض متألماً في أضلاعها.

وتردّد الصوت أو الهدير أو القرقعة. اتجه أحدهم إلى الأمام عبر الليلك المحيط بساحة الإقطاع الواسعة. وأخذ قلب «فريتشا»، الكثير التهيج والحساس لأدنى عاطفة روحية، يقفز في صدرها، فوضعت دونما تعمد يدها الرفيعة السمراء على حنجرتها. وهمست:

ــ ربّي!... كم أنا مذعورة!

وكان لهذا العتاب أثره: فقد أنزلت «فيروتشا» يدها وفقد خدّاها احمرارهما وانتظم تنفُّسها. وعندما أزاحت الأغصان على مهل، رأت بالقرب منها قريبها الضخم الطويل الشعر. كان «راخمانينوف» يأخذ عناقيد الليلك ويبلّل بها وجهه. وكان جبينه وأنفه وخدّاه وذقنه مبلّلة عندما أزاح الأغصان، وقد عَلِقت وِحالات الأزهار وتُويجياتها على حاجبيه وشاربه الرفيع. لكن «فروتشا» كانت تعرف صنع ذلك. أما الشيء غير المألوف فكان اختيار القريب لغصن صغير وإدخاله في فمه بحذر كما لو أنه أراد أكله، ثم إخراجه بحذر من جديد وبلع مادّة ما.

تبعت «فيروتشا» مثاله، لكن عندما امتلأ فمها بهذه الرطوبة الباردة، كشّرت: كان ذلك مراً! ومع هذا، قرّرت ألا تعترف بالهزيمة، فذاقت الليلك الأبيض، ثم الأزرق وأخيراً البنفسجي. كلّ منها كان له طعمه الخاص. أحبّت خمر الليلك الأبيض والأزرق وتلذّذت بطعم الندى المنتشر على العناقيد العطرة. وأخذت تعمل باليدين معاً. وقد رشّها الندى تماماً وحرقت المرارة فمها وامتلأ ذقنها وخدّاها بالتويجيات.

سمعت صوت «راخمانينوف» معاتباً فاتراً:

ــ «يا مجنونتي الصغيرة! ألا تلين من نفسك؟ التهام الليلك، يا له من توحشّ!

تجمّدت «فيروتشا» لحظة وفي يدها عنقود ليلك أبيض.

وتلفَّظت بصوت مخنوق:

ـ «آمل منك، بصفتك رجلاً نبيلاً... لا تقل لأحد... أبداً...!».

قال «راخمانينوف» بخنّة متعمدة: «مجنونة صغيرة... قائدة صغيرة، حتى لو بحت بذلك لشخص ما، فلن يصدقني، لو أن أحداً رآك... يا إلهي، لو أن والدك، القائد المتشدد «سكالون» علم بذلك!». وفتح عينيه متظاهراً بالذعر.

مسحت «فيروتشا» وجهها بيديها اللتين أصبحتا رطبتين على الفور، وتغطَّت وُسيدات أصابعها بتويجيات زرقاء وبيضاء وبنفسجية وبعض من خيوط العنكبوت. أنعمت النظر إلى قريبها الخبيث لقد ارتكب هو أيضاً الحماقات نفسها، لكن لم يكن على وجهه الكبير الأسمر أية قطرة ندى أو ذرارة غبار. متى تمكن من إزالة كل شيء؟

كان تنفس «فيروتشا» قصيراً وكانت أدنى عاطفة تقطع نفسها.

ـ «أرجوك! كان ذلك صبيئةً سخيفة... أنت شرِّير، تريد فقط أن تهزأ من الناس!

قال «راخمانينوف» بنعومة وحنان تعجبت لهما «فيروتشا»:

ـ «حماني الله يا مجنونتي الصغيرة. طبعاً لن أنبس ببنت شفة، إذا كنت لا تريدين ذلك ـ واخترقت صوته من جديد نبرات خبيثة لكنها كانت متسامحة ورفيقة ـ ثم إنه ليس من شيء ذميم في هذا العمل. لقد قرَّرت فتاة صغيرة جائعة أن ترعى قليلاً. حسناً، سأتوقف... أوه... هذا «إيفاتشكا» يركض نحو الجرس. أسرعي إلى المنزل وإلا قُبض عليك.

ـ وأنت؟

ـ أنا، لا أُراقَب كثيراً. لقد مُنع علي فقط أن أذهب إلى الدير ـ هكذا يسمى جناحكم ـ وأن أستقبل نساء في غرفتي... «ناتاشا» مثلاً. لا، ليس أختك العمياء ـ وهل تتنازل فتزور موسيقاراً مسكيناً وتائهاً؟ ـ بل فتاة المطبخ «ناتالكا» السوداء. كالعاج والجافَّة كالمِعْزَقَة. إنني، عندئذٍ، أستجلب المشاكل لنفسي...

وتكلم عن أشياء أخرى، لكن «فيروتشا» كفَّت عن الاستماع. وبسرعة كبيرة ركضت إلى المنزل لتتسلَّل إلى غرفة نومها قبل أن يدقّ الخادم إيفاشكا الجرس.

بقي «راخمانينوف» واقفاً متأملاً، يداعب بأصابعه عناقيد الليلك. عندئذٍ سمع بوق «التنبيه». تنهد. لم يكتف «إيفاشكا» بقرعتين أو ثلاث، بل قرع ما يشبه ناقوس الخطر، سواء بدافع من خبث أو تباذؤ. إن الموسيقى، تماماً كالروائح، تملك قدرة حاسمة على إيقاظ الذكريات...

... من ضبابة طفولته البعيدة انبثقت الساحة الخضراء المليئة بأزهار الربيع وكنيسة «سان تيودور الستراتيلاة» في «نوفكورود» وسأل «ياكوف بروخورويتش»، دقَّاق الأجراس العجوز النافذ البصر الذي كان يرتدي «التشويكا» وقبعة كبيرة ـ سأل «سرغاتي» الصغير:

ـ «ألست خائفاً؟»؟

ـ أخاف من أي شيء؟ (وشدَّ سرغاي بكتف العجوز) تعال يا بروخوريتش، لقد وعدتني...

ويقول العجوز ليجعل الطفل يعدل عن مشروعه: «وهل ستقاصصني القائدة؟» يكذب الطفل بصوت مقتنع: إن جدتي سمحت بذلك. إنها طيِّبة! كان في هذه العبارة نبرة صدق.

ـ حسناً، في هذه الحال، لنذهب...

تسلَّق العجوز الصغير وعصا ابن «القائد»، تلك العصا التي تكاد تكون بطوله، برج جرس الكنيسة ببطء. كانت الدرجات القديمة والمهترئة أعلى قليلاً من أن تتسلقها ساقاهما. ومع هذا، فقد بلغا القمة وانتصبا في أعلاها، حيث كانت تُرى مسافات «نوفكورود» الشاسعة بكنائسها ذات القبب الذهبية و«تيريم الكرملن» القديم وأروقة التجار وشريط «فولكوف» وبقعة بحيرة «إلمن» الرصاصية، وأخيراً الحقول التي يحيط بها خطّ الغابات الأسود. وكانت السنونو تحوّم حول برج الكنيسة وتمر قريبة جداً حتى يمكن المرء أن يلمسها بيديه.

شرع القارع، وقد أخذ خيوط الأجراس الصغيرة، بعزف لحن حنون، لحن ساحر فتن على الفور روح الصبي. منذ ذلك اليوم، أصبحت موسيقى الأجراس بالنسبة له صوت روسيا. الأجراس وحدها يمكنها أن تغني فوق المسافات الصحراوية، بينما الأصوات الأخرى ـ كأغنية الشرب أو نداء شبابة الراعي، أو أنين القصَّابة ـ تموت حيث تولد ثم سرد له قارع الأجراس أسماء آلات الصلب العملاقة: «الفاتشفوني» التي تُستعمل لجمع الشعب و«النبتني» للحرائق أو الكوارث الأخرى، وهذه أجراء القداس، و«البوليليني» المتعاطفة... وهذا هو جرس البهجة الحنون. لكنهما سمعا صوت الجدة الغاضب من تحت، كأنه المُصَلْصِلَة.

قال القارع بذعر مصطنع:

ـ تناديك جدتك وهي تبدو غاضبة. كم هي ستشتمك، يا معلمي الصغير!

لكن راخمانينوف كان يخشى فعلاً جدَّته. فقد قفز الدرج أربعاً أربعاً، وعندما رأى أن جدته لم تكن غاضبة فحسب بل أن

وجهها شوَّهه العذاب والغضب، اضطرب على الفور وخان دليله.

ـ يا جدتي، هذا «بروخورويتش»!

أمرت الجدة بصوت غريب لم يألفه، صوت غاضب ومتألم معاً:

ـ «أولاً، لا تكذب، فهذا مُقَزِّز، وثانياً، هَيِّىء ثيابك!

ـ قال راخمانينوف متباكياً: لماذا؟ لا أريد العودة إلى المنزل.

ـ إنسَ «الأونيغا». لم يعد هناك من منزل أبوي! (قالت الجدة بالصوت المخيف نفسه) ستذهب إلى «بيترسبورج».

سأل الصبي قلقاً:

ـ وماذا حدث لإقطاعه «الأونيغا»؟

حينئذٍ فاضت من القائدة العجوز الكراهية التي كانت قد كدَّستها خلال سنوات تجاه الرجل الذي كانت تراه سبباً لشقاء ابنتها.

ـ لقد بيعت في المزاد العلني... لقد أفلسكم هذا الوحش... وأفقركم!

ـ من هو، يا جدتي؟

ـ ... من هو... من هو! أبوك الخسيس، مَنْ عساه يكون؟ يجب ألا تسمع هذه الأشياء، لكن الحقيقة تفقأ العيون. ومن الأفضل أن أقولها أنا لك. لقد بذَّر ثلاثة أملاك وها قد أخذوا منه الملك الأخير اليوم بسبب ديونه. بذَّر المهر بأكمله... هيا بنا نهيىء الحقائب، يا عزائي المرّ. لم تعد تملك منزلاً لك. الآن، ستعيش في منازل الآخرين.

أراد «سيريوجا» أن يبكي، لكن الجرس دقَّ في الأعلى معلناً موعد الصلاة، فرفع رأسه وبقيت الدموع في عينيه من غير أن تسيل...

كان يتذكر غالباً ذلك النهار الذي غيَّر حياته بأكملها حَكَمَ عليه، كما تنبأت جدته، بأن يفقد منزله. لكن الألم البسيط الذي ولد في نفسه ما لبث أن حلَّ مكانه قرع الأجراس الخارق الذي لم يسمعه بأذنيه فحسب، بل بقلبه. عندما زالت الرؤية، بقيت عينا الفتى «راخمانينوف» جافة. ومدَّدت ابتسامة غريبة، ابتسامة تائهة، شفتي فمه الكبير المرسوم بدقَّة.

لقد أيقظ «ناقوس الخطر» الذي دقَّه «إيفان» الصغير بيديه الصبيانيتين الملك الواسع. فشرِّعت نوافذ المبنى الرئيسي والأجنحة وأبواب شرفاتها وسطوحها. وأطلَّت أخت «فيروتشا» الكبرى الجميلة والبالغة «تاتوتشا» ـ وقد أعطاها «راخمانينوف» لقب «تونتشكا» ـ أطلَّت برأسها من نافذة غرفتها. ومن النافذة المجاورة ظهرت أخت ثانية، «ليودميلا»، وقد لقَّبها «راخمانينوف» «بزوكي» بسبب انشغافها برقص «الباليه». خرج «الكساندر زيلوتي» الطويل والفاتح العينين والشعر، إلى شرفته. وعندما رأى الآنستين الرائعتين الواقفتين على نافذتيهما، أرسل لكل منهما قبلات هوائية. وذلك ما غاظ زوجته الجسيمة «فيرا بفلوفنا» واسمها بالولادة «تريتياكوفا». وكان أن اضطر «زيلوتي» إلى العودة إلى غرفته حيث ارتفع لحن «بتهوفن» الصاخب: «غضب بسبب القرش المفقود».

ظهرت امرأتان متقدمتان في السن على شرفتيهما الصغيرتين، متأهبتين للخروج برغم الساعة المبكرة. كانتا السيدتين «ساتينا» و«سكالون». وقد تبادلتا تحية محبَّة مصطنعة بعض الشيء. ثم خرج التلميذ «سريوجا ساتين» المشعث الشعر مندفعاً بسرعة البرق، حاملاً محفظته على كتفه، متجهاً نحو المستنقع. وظهرت أخيراً بنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، ذات عينين كبيرتين، ولون أسمر، وفم حَرِد قليلاً. هي «نتاشا ستينا»، تتبعها مربيتها ومرافقتها الصبية «مارينا»، طويلة وأنيقة، بضفائرها الذهبية المصففة على رأسها كالتاج.

شاهدت «نتاشا» «راخمانينوف» الذي غادر أخيراً ملجأه وقال شيئاً ما «لمارينا» التي انحنت فوق دربزين الشرفة وصاحت:

ـ «سرغاي فاسيليفتش».

واختفت الفتاتان في غرفتهما، كاتمتين ضحكتهما.

رفع «راخمانينوف» عينيه، شارداً عن أفكاره فاكتشف أن «تاتوتشا» كانت تنظر، ويدها على جبينها كأنها خوذة، في اتجاه الشمس، إلى أفق تعرفه وحدها، قفز ورمى لها بغصن ليلك.

ببراعة غير متوقعة من امرأة بالغة، التقطت «تاتوتشا» الغصن وحملته إلى مِنْخَريها وانحنت بإجلال لصاحب الهديَّة. فأجابها بانحناء رسميّ فكاهي.

وقد أتيح لـ «فيروتشكا»، التي عادت إلى غرفتها، أن تشاهد كل هذه المناورة، فمزقت بأسنانها منديلها غيظاً. إنها لم تكن تفهم التقلُّب البشري: منذ دقائق، كان حنوناً معها للغاية، وها هو الآن يقدِّم ليلكاً لأختها الجميلة الواثقة من نفسها إلى ذلك الحد.

لقد كتب «ليون تولستوي» أن جواً من الحب يسود كل بيت يوجد فيه كثير من الشبّان. ومنزل «إيفانوفكا» لم يكن استثناء لهذه القاعدة: فكل واحد فيه كان دائمًا مغرماً بشخص ما، والحق أنه حتى الشعور العابر يمكن أن يصبح قدراً حاسمًا.

هكذا ابتدأ يوم جديد من هذه العطلة، من هذا الصيف الذي ربما كان الأكثر سعادة في حياة «راخمانينوف» كلها...

كانت السيدة مدام «سكالون» ـ وعلى رأسها قبعة أطرافها عريضة ومظلَّلة مبقَّعة ـ تسأل ابنتها بلهجة لاذعة:

ـ وهل أخذت دواءك؟

ـ نعم، نعم (أجابت «فيروتشا» بنفاد صبر).

ـ يكفي أن تقولي «نعم» مرة واحدة، فلستُ صماً.

ـ أما أنا، فسأصبح صماء بسبب سماع هذه الموسيقى (أجابت ابنتها دون أدنى اضطراب).

كان الهواء فوق البيت يرجف وقد هزّته تمارين «زيلوتي» الموسيقية لمعزوفة «القرش المفقود». وكانت أنغام «راخمانينوف» المضطربة الصادرة عن الجناح الآخر تضيع في هذا اللجب.

قالت «فيروتشا»: وإذا عرضتُ على «زيلوتي» عشرة «كوبك»، هل يزول غضبه بسبب هذا «القرش الضائع»؟

تصنعت مدام «سكالون» الغضب: «فيروتشكا»!

ـ هل يمكنني الذهاب إلى المستنقع؟

ـ في هذا الجو الحارّ؟ إنك مجنونة! تذكّري قلبك الصغير. ولا تبقي في الشمس.

وابتعدت مدام «سكالون».

كان قلب «فيروتشكا» الصغير متألماً فعلاً، لكنه هذه المرة لم يكن كذلك بسبب مرضها، بل لسبب مختلف تماماً.

حملتها ساقاها باتجاه شرفة كان «راخمانينوف» يدرّس فيها البيانو لقريبتها «ناتاشا» التي كانت فتاة ذات شفتين كبيرتين يعطيهانها هيئة الحرد. واختبأت «فيروتشكا» وراء غابة من زهر العسل.

كان «راخمانينوف»، الذي لا يحب ولا يجيد التعليم، يغضب دائماً ويصرخ على تلميذته البليدة. ويزيح أحياناً أصابعها عن ملامس البيانو ويعزف بنفسه اللحن الذي كانت هي عاجزة عن عزفه. أو أنه كان يضغط على إصبع «ناتاشا» ويستعمله لضرب ملمس البيانو نفسه عدة مرات. وكانت «ناتاشا» تتحمّل انتقادات أستاذها بصبر، وكانت شفتاها فقط تنتفخان أكثر فأكثر، كاشفتين عن مدى تنكيدها. لكن «فيروتشكا» كوّنت فكرة تختلف تمام الاختلاف عن هذا المشهد: فها هو «راخمانينوف» ينحني بحنان فوق كتف تلميذته ويهمس في أذنها شيئاً؛ ها هو يحمل أصابعها بحركة مداعبة، على ملامس البيانو، ها هو يقول لها، منفعلاً، كلمات حادَّة، بلا أدنى ظل من التهكم الذي يسود غالباً حديثه معها هي، «فيروتشكا». والحال أنها آنسة، في حين أن «ناتاشا» ليست سوى طفلة غير ناضجة.

كسرت «فيروتشا» من فرط الغضب، غصناً من زهر العسل، ثم ذهبت. في تلك اللحظة، توقفت العواصف «البيتهوفنية» ركض «زيلوتي» الوسيم إلى الحديقة فرحاً كصبي فارّ من مُعلّميه. عندما أيقن أخيراً إلى أي حد غَيَّر اشتعال الليلك هذا العالم المحيط، ظل مبهوتاً.

ركض «زيلوتي» نحو الأدغال، وأخذ يستنشق العطر الفائح بنهم. وقد كانت يداه الكبيرتان تتناول عناقيد الليلك برقّة مدهشة وتقربانها من أنفه الذي كان يمتصها بشراهة.

اقتربت «فيروتشكا» من الموسيقار.

صاح فرحاً: «يا لها من أعجوبة! وأنا لم ألاحظ شيئاً لكثرة انخبالي بـ «بيتهوفن».

قالت «فيروتشكا» وقد أضاعت نمط تنفسها الطبيعي: يا زيلوتي، هل بإمكاني أن أسألك أي نوع من الرجال هو «راخمانينوف سرغاي فاسيليفتش؟».

تعجب «زيلوتي»: سيريوجا؟ ماذا يمكن أن يقال عنه؟ إنه شاب... لطيف... ولكن لماذا تسألينني عنه؟ آه يا مسكينة، مسكينة أنت يا «فيروتشكا».

ابتهلت فيروتشكا:

ـ زيلوتي، ألا تسخر مني! أسألك بجدية: هل هو رجل شريف؟

حاول بجهد أن يمتنع عن الضحك، ثم أجاب بلهجة رصينة:

ـ «دون أي شكّ»!

تساءلت فيروتشكا: هل يعرف أن يحفظ سرّاً؟ اجتاحه مَرَحُه الطبيعي: أنتِ تخيفينني يا فيروتشكا. ما هي هذه الأسرار الفظيعة التي يمتلكها راخمانينوف الغدَّار؟

لكن فيروتشكا استفاقت من غشيتها وأخذت تزعج الموسيقار بدورها. إذ شعرت أنها كانت تعجبه كجميع ممثلات الجنس النسائي: من نساء المجتمع والآنسات الشابات الحالمات حتى الطباخات والمربيات ذوات النهود الكبار.

ـ لن أبوح به!... فأنا أعرف أن أكتم الأسرار... وهل هو موسيقار جيد؟

قال «زيلوتي» فاتحاً عينيه الخضراوين بانعكاساتها المذهّبة: «ممتاز!».

ـ لا؟ هذا غير ممكن؟

هدر «زيلوتي» بإعجاب:

ـ ليس من موسيقار أفضل منه في روسيا. باستثناء «روبنستاين»، ربما؟... مسكينة، مسكينة أنت يا فيروتشكا.

ـ هل ستتوقف؟...

ثم سألته فيروتشكا بسذاجة: إذاً هو أفضل منك كموسيقار؟

صحّح «زيلوتي» قائلاً: سيصبح فيما بعد. وقريباً جداً. انظري قليلاً إلى يديه وهو يعزف. إن جميع الموسيقيين يضربون على الملامس. أما هو، فيغرس فيها أصابعه وكأن العاج طريّ ولين. يغمس يده في ملمس البيانو.

لكن «فيروتشكا» لم تكن مقتنعة بعد.

ـ زيلوتي، يا عزيزي، لا تغضب، قل لي: أنت... ما رتبتك من بني عازفي البيانو؟

أجاب «زيلوتي» دون تفكير: الثاني.

ـ ومن هو الأول؟

ـ هناك الكثير: «ليست»، الأخوان «روبنستاين»... سيصبح «راخمانينوف» الأول، هو أيضاً.

ـ وأية موسيقى يؤلّف؟

ـ حتى الآن، ذلك سرّ. أعلم فقط أنه يؤلّف «كونسرتو» للبيانو. لكن باستطاعتي أن أقول إنه مهما كان نوع الموسيقى التي سيعزفها راخمانينوف فسيكون من المستوى الأرقى. ثقي برجل عجوز مثلي. إنه موسيقار كبير، عبقري وأنت... أنت أوفر النساء جاذبية في العالم!

اندلع نُواح كبير. لقد ظهرت زوجته، «فيرا بفلوفنا» من بين أغصان الليلك. وسرعان ما فقدت وعيها منهارة، كاسرة الأغصان الدقيقة. كانت قد اختبأت في الأدغال لتستمع وتتحمل بصبر القسم المتعلق بموضوع الموسيقي، وانتهت بسماع البَوْح المغوي.

صرخت فيروتشكا مذعورة: يا إلهي: إن زوجتك في وضع سيىء! كيف يمكنني أن أساعدها؟ نظر إليها «زيلوتي» بسخرية وألم.

ـ شيء واحد: أن تصبحي قبيحة!

وساعد زوجته على النهوض. اتجهت «فيروتشكا» نحو البيانو. كان «راخمانينوف» يعزف وقد نسي كل شيء، مغمضاً عينيه، كان شعره الطويل يتراقص حول وجهه. قررت «فيروتشكا»: «الخبث والعبقرية لا ينسجمان»!

... رفع راخمانينوف يديه عن الملمس، وقال لتلميذته: «أرجوك أن تعزفي هذه المقطوعة بهذا الشكل، في المرة القادمة».

أجابت «ناتاشا» مكتئبة: بهذا الشكل، لن أقدر أبداً.

ـ آسف لذلك. لقد انتهى الدرس. إن فتاة جميلة، فاتنة الغابة النائمة، تنتظرني. يا إلهي، كم كنت أحب هذه المقطوعة قبل أن يطلب مني «زيلوتي» نسخها للعزف بأربع أيدٍ. لقد صرخت كثيراً عليك، يا «ناتاشا» لكني أؤكد لك أنني أستحق أنا نفسي قصاصاً جيداً.

سألت «ناتاشا» بخجل: وماذا عليَّ أن أهيىء؟

أجاب «راخمانينوف» من غير رحمة: المقطوعة نفسها ـ بأجمعها. من البداية حتى النهاية.

وقفز مسرعاً أدراج الشرفة.

جمعت «ناتاشا» ببطء أوراق الموسيقى. كانت أفكار صعبة وناضجة تشغل رأسها الصغير وصعدت «مارينا»، مربية «ناتاشا» المخلصة، إلى الشرفة حافية القدمين. تكهنت قائلة: ماذا؟ هل عاتبكِ مرة أخرى؟

أومأت «ناتاشا» برأسها.

قالت «مارينا» بمرح: وماذا بعد؟ هذا غير مهم. يقاصصك لأنه لا يحسن الشرح إن «زيلوتي» لن يرفع صوته أبداً. إنه أستاذ... أما راخمانينوف فليس بعد إلا تلميذاً، ولذلك يعامل تلاميذه هكذا... هيا بنا إلى المستنقع. هل نسبح عاريتين تماماً؟ وعلى هوانا؟

زالت تعابير الحرد عن وجه «ناتاشا» الأسمر.

ـ هيا بنا!... إنني أكره أن أسبح وعلى جسدي ملابس؟ ولن يرانا أحد؟

ـ لا أحد هناك... لكن لا تستأذني والدتك... نذهب؟

عندما ركضت الفتاتان نحو المستنقع، لمحهما «إيفان»، الصبي الأشقر الذي كان في الصباح قد أيقظ الجميع عندما ضرب على مقرعة الصلب. سواء أكان ابن خادمة أو مربية دواجن حبّلها شاب وسيم، فقد تبنّاه الجميع في المنزل. وإذ بلغ السن المناسبة، حُكِمَ عليه بأن يصبح ما يسمى «بموجيك» المطبخ، أي مخلوقاً فريداً لا ينفع لشيء لكنه لا يُستغنى عنه في أي منزل «شريف». وقد فهم «إيفان» على الفور ـ بعينيه الثاقبتين ـ إلى أين كانت الفتاتان ذاهبتين، فلحق بهما مختبئاً وراء أشجار البندق.

اجتازت الفتاتان، اللتان كانتا تضحكان بلطف، سعيدتين وخجولتين قليلاً من مجانتهما، البستان وبلغتا مستنقعاً كبيراً يظلّله شجر الصفصاف. كانت هناك مسابح دُمّرت نصفياً. وقد دارتا حول هذه المسابح ووجدتا لنفسهما مكاناً مخبّأ من جميع الجوانب باستثناء الجانب الذي اختبأ فيه «إيفان» الذي كان قد لحق بهما «خفية».

خلعت «ناتاشا» فستانها الصغير بسرعة ـ حتى وجود زميلتها قد أربكها ـ وقفزت عى الفور في الماء. أما «مارينا» الجريئة، فلم تكن مستعجلة. ذلك أنها خلعت ملابسها على مهل وأدارت نحو أشعة الشمس جسدها الرفيع الصلب، المبكر النضج. كانت متعجبة سعيدة من التغير الذي اكتشفته مؤخراً في نفسها.

لم يكن أقل سعادة من هذا المشهد المراهق المبكر الذي كان قد استقر بارتياح في الأدغال.

كانت «مارينا» تستدير عارضة للشمس نهديها الشابين تارة وطوراً ظهرها اللين.

صرخت «ناتاشا»: إذاً هل ستأتين؟... أيتها السفيهة؟

ابتسمت «مارينا» ابتسامة غريبة، وكأنها صماء للكلمات الموجهة لها، رفعت يديها وجمعتهما فوق رأسها المرفوع إلى السماء. لم يرَ «إيفان» أي شيء آخر: أمسكت قوة غامضة بأذنه ونزعته عن الأرض الصلبة ثم رفعته إلى الهواء وحملته. ارتعش من الألم لكنه لم يتلفّظ بكلمة.

ـ أكنت تتجسس على الآنسة، أيها الأفعى؟

تحوَّل الجلاَّد الغامض إلى البستاني «يكورشا».

دمدم «إيفان» فاركاً أذنه الملتهبة:

ـ وما شأني بها؟

ـ إذن كنت تدرس «مارينا»، أيها الفتى! هل نسيت أنها ابنتي بالمعموديّة؟ انتظر سأخبر السيدة بذلك.

قهقه إيفان هازئاً بشراسة: ـ قل ما شئت ـ إنهم لن يصدقوك. من الذي أفسد الخزامى؟

ـ أي قذر أنت يا «إيفان»! من الذي جعل «ناستينا» تُسقط مسخاً شبيهاً؟.

أجاب «إيفان» دونما تردّد:

ـ أنت، دون شك.

ـ صحيح؟... إذن سأقاصصك قصاصاً أبوياً.

رمى البستاني إيفان أرضاً على ركبتيه ونزع عنه سرواله، ثم التقط قبضة من الشوك رافعاً هذا السلاح الشأري فوق مؤخرة الصبي النحيلة. لكن الصبي عضّ له يده بكل قواه.

صرخ «يكورشا» متألماً وحمل يده المدمَّاة إلى شفتيه، بينما استعاد «إيفان» حريته وأخذ يركض وهو يرفع سرواله.

كانت جلسة شاي الظهر الطويلة تقارب نهايتها على الشرفة عندما عادت السابحتان من المستنقع. انسلَّت «ناتاشا» مسرعة في الليلك لتفادي مقابلة أمها. أما «مارينا» فقد مرَّت بالقرب من الشرفة، عيناها الجريئتان منخفضتان حشمةً، مقدرة أنه ما من أحد سيلاحظ شخصها القليل الأهمية. لكن فستانها الصغير الملتصق بجسدها كان يرسم بوضوح رشاقتها وقوتها الشابة إلى حد أن «زيلوتي» نُزع من مقعده القصبيّ نَزْعاً.

ـ لكن، انظروا إلى هذا!... من أين للجبليات الشابات مثل هذه الأناقة؟ كم عمرها: ثلاث عشرة، أربع عشرة؟... طفلة صغيرة!... مع هذا، يا لها من أناقة! ويا لها من مشية! ويا لعنقها! «جوليات»! الآن أتقبّل فكرة أن «الفيرونيز» الجميلة كانت...

سُمعت صرخة قصيرة وصوت جسد ثقيل يهوي على الأرض، وكأن معجن فرَّانٍ مليء بالعجين قد تدحرج. لقد أغمي على «فيرا بفلوفنا» من جديد.

توقَّف «زيلوتي» عن الكلام، ونظر إلى الحضور بعينيه الطيبتين الواثقتين، عيني المحكوم عليه. ثم رفع بحركة معتادة هذا الحمل العزيز والفظيع وحمله إلى المنزل.

قالت السيدة «سكالون»:

ـ إن جميع أفراد عائلة «فيرا» على ما أعلم، يتميزون بتحفظ مثالي.

أضافت السيدة «ساتينا»: ولولا ذلك لما وجد السرواق الشهير. لم ترث «فيرا بفلوفنا» هذه الصفة من والدها دون شك.

لاحظت «ناتوشا»: إنها تشبه أمها. كانت هذه الأخيرة تقبّل يدي الموسيقار «روبنستاين» وتغيب عن الوعي بمجرد أن يعبس.

قالت السيدة «سكالون» زامّة شفتيها:

ـ يظهر لي أن هذا القول، في فم فتاة شابة جداً، هو تصريح طائش بعض الشيء.

وسألت «تاتوشا» ببلادة:

ـ «وفي فم امرأة عانس؟»

نظرت إليها أمها بإعجاب غير إراديّ.

ـ أنت لا خطر عليك من هذا.

قالت «تاتوشا» بابتسامة خفيفة: من يدري؟ فأختي الصغرى «بريكا» سلبت مني أحد فرساني المطيعين!

التفت الجميع فرأوا «فيروتشكا» و «راخمانينوف» مستغرقين في حديثهما.

سألت «فيروتشكا» باستياء:

«لماذا يجب قطعاً تعليم الآنسات العزف على البيانو؟ كلنا، باستثناء «تاتوشا»، لا نملك أية موهبة، لكننا نجبر على العزف كل يوم، وذلك في منزل يعزف فيه موسيقيون «كزيلوتي» وأنت. لا يمكن خلق فن ما بطريقة إجبارية. سينتهي بنا الأمر إلى كرة الموسيقى، لا سيما هذه المسكينة «ناتاشا».

ردّ «راخمانينوف»: ليست «ناتاشا» عديمة الموهبة إلى هذا الحد. إنها جديرة...

ـ كفى يا راخمانينوف، ها أنت تبدأ من جديد... هل تعتقد أن ما من أحد يسمع صياحها عندما تلقي الدرس عليها؟

ـ ليست لي موهبة تربوية.

ـ هذا غير صحيح! بكل بساطة، هي غير جديرة. فلماذا تعذيب هذه الطفلة المسكينة؟

ـ طفلة؟ يا مجنونة صغيرة، أنت فريدة! كم يتعدى عمرك سنها؟ سنة؟ سنتان؟

قالت «فيروتشا» حانقة: لا أهمية لذلك! فأنا أكبر منها سناً!

تعجب «راخمانينوف»: وأنت شريرة. إنك لا تحبين «ناتاشا» فيما هي شديدة التعلق بك.

نطقت «فيروتشا»: بل أنت الشرير!

وشعرت بدموع تملأ عينيها.

لكن «راخمانينوف»، سواء أكان بدافع من مضايقة «فيروتشا» أو بإرادة الانتقام «لناتاشا»، أكمل باللهجة نفسها:

ـ ولماذا لا تحبين الفتاة المسكينة، الجدية، والمخلصة إلى هذا الحد؟ ثم إنها ناعمة. صحيح أن شفتيها مكتنزتان كالطفل، لكن عينيها كعيني فتاة لوحة «موروزوفا».

صاحت «ناتاشا»: ليس عليك إذن إلا أن تذهب فتلحق بـ«ناتاشا» هذه... ما حاجتك بي؟

وهذه المرة، تدحرجت دموع غزيرة مباشرة من قلبها الصغير والضعيف.

كم كان «راخمانينوف» مضطرباً ومحزوناً! وامتلأت عيناه بالدموع. لقد أصبح شاباً بالغاً امتحنته الحياة، لكنه كان عديم التجارب والمهارة فيما يتعلق بالقيم الحساسة للقلب البشري. عندئذٍ؛ يصبح «الموسيقار التائه»، أقل مهارة من أي فتى صغير، ولقد سقط على ركبتيه وأخذ يدي «فيروتشكا» يغطيها بالقبلات، مبتهلاً إليها أن تسامحه، هو «الدبّ القذر».

ـ هيا يا عزيزتي!... هيا يا جميلتي!... سامحي الأحمق العجوز! أنت طيبة ومشرقة...

لم يتفق أن حدث مثل هذا قط لفيروتشكا حتى أنها، بسبب ذلك، توقفت عن البكاء.

ـ كفى يا راخمانينوف! إن يدي قذرتان. لقد حرثت بهما بستان الفاكهة!

وباضطراب أكبر وضياع تام، وضعت قبلة على رأس «راخمانينوف».

لقد برهن «راخمانينوف» عن حساسية فائقة: فنهض متظاهراً بأنه لم يلاحظ هذه القبلة الخرقاء.

ـ هل سامحتني؟... الحمد لله! كنا نتحدث جيداً. لم أتكلم عن حياتي أمام أحد، وقد قصصت لك كل شيء عنها كما لو كنتُ جالساً في كرسي الاعتراف. ثم هذه الموسيقى اللعينة! نعم، أنا موافق معك: إنها لحماقة أن يُلقّم الأطفال تعاليم موسيقية وكأنها ثريد من سميذ.

لكن فيروتشكا قرّرت هي الأخرى أن تكون شهمة، فقالت بنبرة عاقلة: لا لجميع الأطفال... إن ناتاشا، موهوبة جداً.

ـ الآن أتعرّف على «بريكوشا» الطيّبة والرائعة. لكن هذا اللقب لا يعجبني. بالنسبة لي، ستكونين دائمًا مجنونتي الصغيرة! موافقة؟

قالت «فيروتشكا» باللهجة البالغة نفسها: يا له من تصرف صبياني!

وابتعدا عن المنزل، تمتد أمامهما أدغال الليلك الأبيض.

قال «راخمانينوف» برقّة: يا مجنونتي الصغيرة! ما رأيك أن نشرب من خمرنا، كرمز لمصالحتنا، بل للسلام التام والدائم بيننا؟

قبلت «فيروتشكا» مَرِحة: موافقة!

ـ ماذا تفضلين؟

ـ الأبيض.

أحنى باتجاهها عنقوداً رطباً وثقيلاً.. تفضلي. أما أنا فسأتذوّق «الروزيه» ـ وقرب من نفسه غصناً من الشجرة المجاورة ـ بصحتك يا «فيروتشكا»!

ـ بصحتك يا «سرغاي راخمانينوف»!

ماكادا يفرغان «كأسيهما» حتى سمعا نداء:

ـ فيروتشكا! فيروتشكا!

التفتت نحو «راخمانينوف» باضطراب.

ـ إنهم ينادونك، سأختفي.

وتلاشى كساحر في غيابة الليلك. ركضت «ناتاشا» لاهثة.

ـ رسالة لك.

ـ ممن؟

قالت «ناتاشا»: من سيريوجا تولبوزين!

ـ آه... منه هو!...

أخذت «فيروتشكا» الرسالة ووضعتها في جيبها بلا مبالاة...

كان الليلك لا يزال يزهر، لكنه كان يبدو متعباً قليلاً. وفي المقابل، أخذ نبات آخر بالتفتح. وكانت الرياض المتفجرة تبدو

للناظر المعجب كأنها بُسُط صيفية بكامل نضجها. وكانت تندلع فوق المنزل موسيقى البيانو ـ مقطوعة من «الكونسرتو الأول للبيانو والأوركيسترا» ثم ساد الصمت. وقفز «راخمانينوف» أدراج الشرفة مدلّكاً يديه المتعبتين. ومن شرفة أخرى نزلت «ناتاشا»، جميلة كيوم صيفيّ، مرتدية سترة بيضاء قديمة التفصيل ومزينة بخيوط صوف متعددة الألوان، تشد الخصر شداً. ولحقتها «فيروتشكا» التي كانت أصابعها ملطخة بالحبر.

قالت «ناتاشا» بصوت مسترخٍ: كم هو ثقيل هذا الحر! يا سرغاي راخمانينوف، ما رأيك بنزهة في الزورق؟

أجاب «راخمانينوف» بعفوية: بكل سرور.

قالت «فيروتشكا» بحماس: أنا أيضاً سأذهب معكما.

تدخّلت السيدة «سكالون»: وقلبك؟ لا تفكري أبداً بهذه النزهة.

كانت غيرة «فيروتشكا» أقوى من خشيتها من أمها القاسية: لماذا الجميع هنا قلق على قلبي؟ إلهي، كم يزعجني هذا كله! إن لي قلباً قوياً وسليمًا كقلوبكم جميعاً.

ـ تؤذيك الانفعالات، يا طفلتي (كانت قسوة اللهجة لا تلائم هذه الكلمات المتوسلة) على كل حال، هدّئي روعك، فأنت لم تنهي الإملاء بعد. وهذا أفيد. (والتفتت السيدة «سكالون» إلى «راخمانينوف» الذي بدا مستعداً للتنازل عن دوره كقائد الزورق) يا راخمانينوف، آمل أن لا ترفض طلب «تاتوشا».

تمتم راخمانينوف: بالطبع لا.

على الشرفة، كانت المربية «ميسوتشكا» تصحح إملاء «فيروتشكا».

ـ يا إلهي، آنسة «فيروتشكا»، ماذا حصل لك؟ لم ترتكبي أخطاء بهذه الكثرة من قبل. في كل كلمة...

أجابت «فيروتشكا» بحزن: لا أبالي!

صرخت «ميسوتشكا» بصوت ثاقب: آنسة «فيروتشكا»! أنت تتكلمين كبحار سكران.

قالت «فيروتشكا»: ليأخذ الشيطان الإملاء والأخطاء والبحار وأنت وأنا. يمكنك أن تشتكي لأمي.

وخرجتِ إلى الحديقة. وفي هذه اللحظة، عادت «تاتوشا» و«راخيمانينوف» من المستنقع. كانت «تاتوشا» تبدو منتصرة وكان رأسها مزيناً بتاج من أزهار عرائس النيل.

سألت «فيروتشكا»: ألا تشمئزين من وضع هذا الوحل على رأسك؟

ـ لا تكوني حسودة، يا صغيرة، فهذه خطيئة. (والتفتت «تاتوشا» إلى مرافقها) راخمانينوف، من أنا؟

قال راخمانينوف بعد تردد: «أوندين»... «أوندين دمتريفنا».

نظرت «تاتوشا» بفخر إلى أختها الصغيرة.

أجابت «فيروتشكا» بصوت ناقم: هذا لا يمنع أن تاجك يفوح برائحة العفن.

خلعت «تاتوشا» تاجها وقد ظهرت ابتسامة متسامحة على شفتيها. وبتأنق فائق، كما عندما ينزع التاج الملكي، شمّته ورمته باشمئزاز.

قالت: أنا «أوندين» حتى من غير تاج.

ومشت باتجاه المنزل بخطى ملكية.

تاهت «فيروتشكا» مجرجرة قدمها دون أن تعلم إلى أين تذهب.

ناداها «راخمانينوف»: فيروتشكا! يا مجنونة صغيرة!... يا قائدة صغيرة!

لم تجب «فيروتشكا» على أي من هذه الألقاب. وبخطوته الواسعة، قبض راخمانينوف ثانية عليها وحاول أن يمسك يدها، فاقتلعتها فيروتشكا منه.

ـ لماذا أنت غضبانة؟ وهل هي غلطتي أنا إذا طلبت والدتك مني أن أرافق «تاتوشا» في نزهة؟

ـ لا تكذب!... لا تكذب قط! لقد أردتَ ذلك أنت بنفسك.

ـ إنني أكرهُ التجديف.. أقسم لك...

ـ ولقب «أوندين» الملكة، هل هي أمي أيضاً التي اخترعته؟

ـ يا إلهي! ماذا فعلتُ حتى أستحق هذا العذاب؟

ـ أنت رجل متقلب وغير وفيّ!

ابتسم «راخمانينوف»، لكن صوته توتّر: يخيل للمرء أنك حاسدة. أتركي الحسد للشاب «سيريوجا تولبوزين».

ـ وما دخل «تولبوزين» في هذا الموضوع؟ ثم إن «تولبوزين»، أعرف هذا جيداً، ليس سوى عجوز مغناج!

تنهد راخمانينوف بثقل.

ـ عجوز مسكين!... «فيروتشكا»، يجب احترام الشيخوخة.

لم تتملك «فيروتشكا» نفسها وأخذت تقهقه.

استنهز راخمانينوف هذا الانفراج وقال مسرعاً: يا مجنونة صغيرة، ما رأيك أن نشرب من خمرنا؟ صحيح أنه قد عتق لكن الخمر العتيق هو الأفضل.

كان الليلك أمامهما، وقد قدم لهما عناقيده الذابلة المبقّعة بالعفونة. لكن «فيروتشكا» كانت لا تزال تراه كما كان في فترة إزهاره الأول، عندما جاء «سيرايوجا» راخمانينوف فجأة يدقّ باب روحها.

قالت بنعومة: موافقة! أنا أشرب من الأبيض.

لكن الوقت تداركهما فلم ينفذا مشروعهما وركضت «ناتاشا» وقد رافقتها «مارينا».

تراجع «راخمانينوف» بخطوة معتادة إلى ظل الأدغال.

ارتمت «فيروتشكا» بغضب على صديقتها الفتية: ماذا تريدين؟ هل أنت تتجسسين عليّ؟

نفخت «ناتاشا» شفتيها:

ـ هل نسيتِ؟

ـ ما الذي نسيتُه؟

قالت «مارينا» متدخلة: يجب جَدْل الأكاليل، يا آنسة!

ـ أية أكاليل؟ ما هذه الصبينة مرة أخرى؟

ذكّرت «ناتاشا»: لكنها ليلة «القديس يوحنا».

أضافت «مارينا»: الآنسات جميعهن يقمن بالتنجيم لاكتشاف خطابهن.

قالت «فيروتشكا» بتكبر: ليس هناك أي سبب لكي تقلقا، أنتما الاثنتين، فمن المبكر جداً أن تفكرا بخطيبين لكما.

أكّدت لها «ناتاشا»: نحن لا نفكر بهذا. لقد جئنا لنأتي بكِ. وقد جدلت «تاتوشا» و«زوكي» أكاليلهما.

اقترحت «مارينا» لنذهب إلى الحقول. فيجب جَدْل الأكاليل من زهور الحقول.

قال صوت صادر من وراء الأدغال: الليلة، ستظهر روح «سيريوجا تولبوزين»!

هزّت «فيروتشكا» كتفيها باحتقار. أما «ناتاشا»، فأوسعت عينيها فزعاً، انفجرت «مارينا» ضاحكة ضحكة ثاقبة.

* * *

أرسل القمر، المطوّق بوسادة من الغيم، أشعة كافية تماماً لجعل الزجاج والمعدن يبرقان والضبابة المفضضة تذوب فوق أدغال الليلك الأبيض. وبقيت جميع الأشياء الأخرى غائصة في الظلام.

كانت الفتيات الشابات تاتوشا وليودميلا وفيروتشكا والمربية الصغيرة «ميسوتشكا» قد تركن القنديل على الشرفة فغرقن في ظلمة حالكة ثم انفصلت السماء عن الأرض وارتسمت ذروة الأشجار تحت هذه السماء. وظهرت النجوم وأُشعِلَ ضوء مخضرّ في فجوات الغيم. وقد اجتازت الفتيات الساحة الواحدة تلو الأخرى وخرجن إلى الحديقة.

كان الظلام أشد حلكة هناك، لكن العيون سرعان ما ألفته، وشقّت الفتيات بخطوات رشيقة طريقاً بين الأشجار حتى بلغن بستان التفاح المطلية جذوع أشجاره بالكلس الأبيض الفسفوري. وتفرّقن كل منهن إلى مكانها المفضل.

اقتربت «فيروتشكا»، وقد بسطت يدها إلى الأمام، من شجرة كان غصنها الكبير يلتوي تحت ثقل ثمار ما زالت خضراء.

وتقصّت الظلمات التي كانت أشعة من النور قد بدأت تخترقها. ولمحت الفتاة الفجوة فألقت إكليلها داخلها. ثم همست بالعبارة السحرية.

قرقع غصن وترجح طيف. ثم قرقعة أخرى وصرير خطى خفية. وانفصل بعض التفاح عن الشجرة وصفع الأرض صفعاً مخنوقاً. رجفت «فيروتشكا» وضمّت معصميها الصغيرين إلى صدرها. وعلى الفور انبثقت «ناتاشا ساتينا» من وراء شجرة التفاح، هازّة رأسها لتنفض الغبار من على شعرها. وفي الظلام كان يسمع تنفس «مارينا».

صرخت «فيروتشكا» من غضب، ولكن أيضاً من عزاء: «أنتِ أيضاً؟».

ـ هل يمكنني أن أبقى معك؟

قالت «فيروتشكا» متفحصة الطلمات: من المستحيل أن يشاهد الشبح، إذا كنا نحن الاثنين معاً، وإذا كنا ثلاثة، فذلك أسوأ.

قالت «ناتاشا» بلهجة نائحة: لكنك سترينه في الحلم، وليس الآن.

قاطعتها «فيروتشكا»: إذا بقيتِ واقفة هنا، فلن أراه حتى في الحلم.

ابتعدت «ناتاشا» خافضة الرأس. ورافقتها «فيروتشكا» بنظرة أصبحت فجأة مسامحة: فقد كانت الصغيرة تثير شفقتها مع ذلك...

* * *

حاولت «مارينا» تهدئة «ناتاشا»، وهما في طريقهما إلى البيت.

ـ لا تحزني، يا آنسة، سننظم بنفسنا تنجيمنا الخاص.

سنسيل الشمع الساخن، وأنا أحسن صنع ذلك. وستـرين موعودك.

قالت «ناتاشا» حزينة: لا يا مارينا، هذا غير مسموح لي. الحقيقة أنني ما زلت صغيرة.

اغتاظت «مارينا» قائلة: حسناً، كما تريدين ليس هناك من وسيلة لإرضائك. هيا، سأضعك في سريرك. وسأعود إلى المطبخ للتنجيم. ربما أصل إلى هناك في الوقت المناسب.

ــ إذهبـي يا مارينا، سأنام من تلقاء ذاتي.

قالت الفتاة بصوت راشد: لا. سأراقبك حتى تنامي، وإلا لما استرحتُ.

* * *

كانت الفرحة سائدة عندما ظهرت «مارينا» في المطبخ. كانت فتيات المطبخ قد فرغن من التنجيم منذ فترة طويلة، وامتلأ الجو الآن بدخان: فكانت الكعوب تطرق والخمر الملونة تتطاير. كان الجميع يرقصون على أنغام آلات «البلالايكا» والجيثارة التي كان يعزفها أعداء جدد: البستاني «يوجورشا» و«إيفان» المراهق. لكن ما كادت «مارينا» تصل حتى أعطى «إيفان» آلة «البلالايكا» للحوذيّ ليدخل في الحلقة الراقصة.

كان من الواضح أن راقصاً من الدرجة الأولى قد دخل الحلقة: كان يهزّ شعره الكتانيّ، ويضرب كعبه بالأرض ويدير طرف حذائه الرَّثّ. وقد أخذ «إيفان» يدور على نفسه، مسرعاً ومعقّداً خطى هذه الرقصة ــ الزوبعة الروسية. كانت نـظراته المعتمة التي تتناقض مع شعره الأصفر صفرة الشعير ــ لا تغادر «مارينا».

كان وجه «مارينا» يحترق. لقد نمت بالقرب من آنسات البيت، وأمضت القسم الأكبر من حياتها في غرف ملاكي المنازل. فتشرَّبت عاداتهم وسلوكهم وتعلمت استعمال الكلمات الأجنبية لكن روحها بقيت هنا، في هذا العالم الذي كان قريباً منها. هنا كانت روحها تتكشف حتى آخرها.

لم تبق «مارينا» فترة طويلة لامبالية بنظرات «إيفان». لقد دقَّت الأرض برجلها الصغيرة، وانضمت إلى الحلقة. وسرعان ما أثارت الراقص وجعلته ينجذب إلى قربها. لم يكن التنافس بينهما سهلاً، بل كانت مباراة ومبارزة لم يتنازل عنها أحدهما. وطلب ثالثهم البستاني «يغورشا» إعفاءه:

ــ إنني لا أستطيع المتـابعة، أيهـا الصبية. إنني متعب، أعطوني شراب «الكفاس» لأغسل حلقومي.

وفيما كان الموسيقار يغسـل حنجرتـه بشراب «الكفـاس» و«البراكا»، سأل «إيفان» «مارينا» بصوت نكد:

ــ لماذا تأخرت هكذا؟

قالت الجميلة بحركة احتقار:

ــ لم أطلب منك إذناً.

هدَّدها «إيفان»: حَذَارِ يا «مارينا»!

أضافت «مارينا» باللغة الفرنسية، متكلمة من أنفها: أوه! كم أنت تخيفني!...

انفجر «إيفان»: لا تقولي بذاءات. وإلا فـأنت تعرفـين اللِّجام!...

ومنعتهما الموسيقى التي عُزفت من جديد من أن يكملا تشاجرهما. فتناسيا خصامهما وانطلقا داخل الحلقة وأصبحا متساويين من جديد.

* * *

كانت «فيروتشكا» نائمة في سريرها، وألقى القمر الهلالي الذي بلغ نافذتها، نظرة إلى الغرفة فأضاء الوسادة الجعداء والشرشف المكوَّم على حافة السرير وشعرها الفاتح المبعثر وفمها المنفرج.

أنَّتْ «فيروتشكا» وقد تأثَّرت روحها لهذا الشعاع الحزين. لكنها لم تستيقظ. وبدا لها، مع ذلك، أنها قد نهضت مرتدية ثيابها وسارت على الممر الطويل الجميل في البستان القديم. حدث ذلك في الصباح، وكانت الأشعة البخارية تعبر حجرة البتولا من أولها حتى آخرها متعثرة بشجرة التوت الوحشي التي كانت تنمو على طول الدرب، وطردت تلك الأشعة بخار البراكين الأزرق. وقد حسبت أنها ترى شيئاً مخيفاً وراء مظاهر هذا الصباح المشمس البراق البخاري. وكل شيء في «فيروتشكا» تقلَّص عندما أخذ هذا التهديد الوهمي شكل إنسان ذكر يمشي ببطء منذ بداية الممر لملاقاتها. كان يمكن «لفيروتشكا» أن تهرب أو أن تختبـىء في شجرة التوت أو أن تتوقف ببساطة؛ ولكنها كالمحكوم عليها، تابعت مشيتها لملاقاة الخطر. كان حجم الغريب يتضخم بطريقة عجيبة كلما اقترب، حتى أصبح في طول الأشجار ثم ازداد طولاً، وفي الضباب العائم والنور الشمسي المزويع لم يبق للغريب أي جسد واضـح. كان يتجمـع وينتفخ ويتنقـل داخل نفسـه. وكانت «فيروتشكا» تسير، خاضعة أو تنزلق بالأحرى نحوه، تصغر كلما كبر هو. وفجأة امتد ظلّ هائل فوقها فابتلعها. ورافق الألم القاسي سعادة، لأن هذا العملاق، كان «راخمانينوف»...

استيقظت «فيروتشكا» وقد بلَّلها العرق. ودخل ضوء الفجر الرقيق الأزرق عبر نافذتها، فلبثت ثابتة بعض لحظات، مفتوحة العينين على سعتهما. ثم استقامت في ثوب النوم الطفلي وركضت باتجاه مكتبها فأخرجت منه ما هو أثمن شيء لديها ــ دفتر مذكراتها

الحميم ذا الغلاف الجلدي. وكتبت بأحرف كبيرة على صفحة بكر: «انتهى الأمر، ليس ثمة أي شك، فأنا عا ــ ش ــ قة! كيف حصل ذلك؟ أجهله. أعرف شيئاً واحداً: إنني أحبه. حصل ذلك فجأة، بالرغم عني. ماذا سيحدث غداً؟ لا أعلم. هل أنا مسرورة؟ لا أعلم. هل يحبني؟ ذلك هو السؤال الأفظع الذي أطرحه على نفسي. وليسامحني «سيريوجا تولبوزين» والرب الرحيم».

* * *

كان الفضول يتآكل الجميع، أثناء تناول الشاي: من هم الشبان الذين حلمت بهم الآنسات الشابات اللواتي قمن بالتنجيم؟ لكن «ليودميلا» كعادتها، رأت «زوكي الإلهية والمثالية». أما «تاتوشا» فحلمت بضفدعة...

قال «راخمانينوف» بذعر: يا سيئة الحظ! ولماذا ضفدعة؟

أجابت «تاتوشا» بتواضع: ربما لأنني لا أستحق أفضل من ذلك. ضفدعة سمراء من الغابة ذات عينين ناتئتين. وبماذا حلمت «فيروتشكا»؟

أجابت «فيروتشكا» بجرأة: سيريوجا تولبوزين!

قال راخمانينوف: ومن غيره سترى فيروتشكا في حلمها؟ كم هو محظوظ سيريوجا تولبوزين هذا! إنه على بعد ألوف الكيلومترات من هنا لكن صورته تقلق عابداته البعيدات. صرخت فيروتشكا ضاربة الأرض برجلها: إخرس!

ولاحظت أختها الكبرى اضطرابها.

قال الحوذيّ وهو يدخل القاعة: الخيول جاهزة.

أعلنت السيدة «ساتينا» فليستعد بسرعة الذاهبون للنزهة. جلست «فيروتشكا» في العربة بالقرب من راخمانينوف، لكن «تاتوشا» جلست بالقرب من جانبه الآخر، أنيقة وكأنها ذاهبة لمعرض ما، أو حفلة راقصة، لا لمستودع الحصيد.

ما إن أقلعت العربة حتى أخذت «تاتوشا» بالضحك رامية برأسها إلى الخلف. وحاولت «فيروتشكا» عبثاً أن تفهم ماذا كان راخمانينوف يفعل ليجعل أختها الكبرى مرحة إلى هذا الحد. لكن صرير الدواليب وضجيج العربة المرتجة على أعشاش الدجاج في الطريق، ورنين الأجراس وجهاز الفرس، كل ذلك كان يحول دون تمييز الكلمات.

وقد عكّر الحديث بين «تاتوشا» و«راخمانينوف» فرس ــ طفل كان يقترب دائمًا من «تاتوشا» من الخلف. وقد أسعد ذلك «فيروتشكا» الخبيثة. كانت «ناتاشا» قد امتطت هذا الفرس البالغ سنتين من العمر لكنها لم تنجح بركوبه، وكان يضرب بكعبيه مؤخرة العربة بعناد ويكاد أن يُدخل شفتيه المليئتين باللعاب في شعر «تاتوشا». وكانت الأخت الكبرى «تاتوشا» تخاف الخيول قليلاً، ثم إن هذا الفرس كان يزعج حديثها مع «راخمانينوف». وكانت «تاتوشا» تقوم بحركات مذعورة ومهددة في آن واحد، باتجاه الفرس.

أما الفرس، فكان يرفع رأسه ويحنيه ويحظ عيناً شريرة ودموية يبصق ثم يعود فيصدم رأسه بـ «تاتوشا».

صرخت «تاتوشا» للفارسة العديمة المهارة: ألا تستطيعين أن تروّضي فرسك؟ إنه يبصق كالجمل.

حاولت «تاتوشا» حردة وحزينة أن تبدل اتجاه دابتها نحو الحفرة. هزَّ الفرس رأسه وعاد خلف العربة. عندئذٍ تراجعت «ناتاشا» إلى الوراء بحركة خرقاء وشدَّت بكل قواها على اللجام. فأوجعت الفرس الذي اصطك فكه، محاولاً أن يعضّ على الخطام، وابتعد عن العربة.

هدأت «تاتوشا»، وعدت إلى الضحك بضحكة مغناج كحورية البحر. وإلى اليسار، كان مستودع الحصيد ينكشف في غيمة الذراوة. كانت مطرقة بخارية إنكليزية الأصل تضج وكانت تشبه بمدخنتها محرك قطار.

كانت وجوه الفلاحين السمراء المنهمكين تتميز في الغبار والعُصاف. كان الرجال يضعون نظارات واقية. أما النساء فكن قد أدرن قطعاً من القماش حول رؤوسهن كاشفات فقط عن ثقوب رفيعة للعينين.

سمعت «فيروتشكا» صوت «راخمانينوف» العميق: كم أحب كل هذا: الحصاد والدراس والحفشة في الحقول المحصودة. أقسم لك أني في أعماق قلبي، لست موسيقاراً، بل أنا مزارع!

قالت «تاتوشا»: كم هذا مملّ (وانضجرت ضاحكة).

تدخلت «فيروتشكا»: «وأنا أيضاً أحب أعمال الحقول» (لكن يبدو أن أحداً لم يسمعها).

ــ أحلم بأن أصبح ثرياً وأشتري أرضاً (كان من الصعب أن يفهم المرء إذا كان «راخمانينوف» يمزح أم يتكلم بجدية) أن آكل الخبز المخبوز في البيت، وأشرب حليب بقراتي الخاصة...

ضربت «تاتوشا» يد راخمانينوف بمروحتها: «كفى! لا تخيب آمالي كلها. لقد صدَّقتك عندما قلت لي إنك موسيقار تائه، لكنك تفكر الآن «ككوركول»[1] حقيقي.

سأل راخمانينوف: «ماذا تعني كلمة «كوركول»؟».

---

(١) كوركول: فلاح خشن.

قهقهت «ناتوشا» بينما لم تَرَ «فيروتشكا» شيئاً يستدعي الضحك في سؤال «راخمانينوف» أضعف «ناتوشا» ضحكها هذا، فوقعت على «راخمانينوف» وقد لمس ريش قبعتها وجه راخمانينوف ودخلت في عينيه. لم تتحمل «فيروتشكا» الوضع. فالتقطت كومة من العلف وقدمتها خفية للفرس الصغير. مد هذا الأخير شفتيه فوراً نحو هذه الوليمة دون ادّعاء. وحاولت فارسته أن تضغط على العنان دون جدوى، فقد التقط الفرس العلف وأخذ يمضغه فوق رأس «ناتوشا».

ابتعدت «ناتوشا» والتصقت أكثر براخمانينوف وجدت «فيروتشكا» المزيد من العلف وجذبت الفرس أكثر. فوقع بعض اللعاب على قبعة «ناتوشا» ورقبتها وثوبها.

صرخت «ناتوشا»: قف!

أطاعها الحوذيّ.

ــ أجبروا «ناتاشا» على النزول. إنها لا تعرف كيف تركب الخيل.

ترجلت «ناتاشا» عن ظهر الفرس، حابسة دموعها.

أمرت السيدة «ساتينا»: ليولا، خذي مكانها.

صرخت فيروتشكا: «لا، أنا سأفعل ذلك».

كانت تلك وسيلة كغيرها لاجتذاب انتباه الآخرين.

وقبل أن يمنعها أحد، قفزت من العربة إلى ظهر الفرس الذي فزع وتراجع قبل أن تتمكن «فيروتشكا» من التقاط العنان ثم شبّ وترنّح على ساقيه وبدأ يهوي إلى الخلف.

أصدى صوت السيدة سكالون من العربة باللغة الفرنسية: «من الأكيد أنه سيقتلها» حتى خوفها من أن تقتل ابنتها لم تؤثر على لهجتها الاجتماعية، فالعبارة الفرنسية كانت ممتازة.

نهض «راخمانينوف»، أسرع من الريح، فانتصب بجانب الفرس وأمسكه بالعنان. شدَّه بكل قواه وأجبره على الانحناء. ثم رفع «فيروتشكا» بمهارة من على ظهر الفرس وامتطاه وجعله يعدو في الحقل.

حلَّ حماس صاخب مكان الرعب، وصفَّق الجميع. كانت «فيروتشكا» الوحيدة التي لم تصفق، مندهشة، لا بإنقاذه لها، بل بالجمال الذي اكتشفته فجأة عند «راخمانينوف». ذكَّرها شعره الطويل وأنفه الأقنى ونحافته ولونه الأسمر بـ«أوسيولا» المدهش، قائد الهنود الحمر وبطلها المفضل. على هذا السرج النسائي المزعج؛ كان راخمانينوف مرتاحاً كطفل البساتين. ومع هذا، فلم يعترف ولو مرة واحدة بمواهبه الفروسية.

بعد أن أتعب «راخمانينوف» الفرس وروَّضه اتجه نحو العربة.

قالت «ناتوشا» مبتسمة: أنت بطل يا راخمانينوف.

صرخت «فيروتشكا» بنشوة: أنت قائد الهنود الحمر... هيويانا! أوسيولا!

ضحك الجميع. وحده راخمانينوف لم يضحك. كان يدرس بانتباه وجه «فيروتشكا» المحمر وعينيها الدافئتين. وللمرة الأولى لامسته الحقيقة بجناحها.

التقيا بلا موعد، بالقرب من الليلك نفسه الذي كانا قد سكرا بخمرته. لكن كانت الورود قد اختفت الآن، وبقي ورق شجر كثيف وأخضر غامق. قال «راخمانينوف»: لا يمكننا أن نشرب خمرنا بعد اليوم.

أجابت «فيروتشكا» حزينة: نعم... لقد اقترب الرحيل، مع أن الصيف بدا وكأنه لن ينتهي أبداً وأن لدينا الوقت الكافي لإتمام أمور عديدة، لكن الوقت كان قصيراً.

ــ عمَّ تتكلمين يا «فيروتشكا»؟ وَلِمَ هذا المزاج المأساوي؟

ــ أنت تسخر دائمًا مني يا راخمانينوف لماذا؟ لأي هدف؟ هل أنت حزين إلى حد أنك بحاجة للمزاح المتواصل؟

باح صوت «راخمانينوف» بتعجبه الصريح: كيف استنتجت ذلك؟ إنك ما زلت صغيرة السن.

ــ حلمتُ بك يا سيريوجا: لقد استيقظت فوجدت نفسي ناضجة.

صمت «راخمانينوف» لوقت طويل. ثم قال بحنان:

ــ أعتقد أنني بدأت أفهم معنى الموسيقى. لم يكن عملي ناجحاً: لا تأليف قطعة «الجميلة» ولا عملي الآخر... ولقد اقتنعت بعجزي التامّ. ولكن الموسيقى كانت في مكان آخر... إنني أسمع موسيقاك أنتِ...

قالت مغتمة: عدنا إلى الموسيقى؟... وماذا يبقى لي أنا؟ ليس لي أية موسيقى ــ أنت موسيقاي يا سيريوجا، ألم تفهم ذلك بعد؟

قال راخمانينوف عاجزاً: يا إلهي! كنت خائفاً من تصديق ذلك! كم كنت سعيداً بأن أحمل مجنونتي الصغيرة إلى آخر الدنيا.

قالت «فيروتشكا»: احملها... خذني يا سيريوجا.

ــ ماذا يمكنني أن أفعل؟... لست سوى قريب فقير... ولقد تقرَّر مستقبلك من قبل.

ــ لا أريد أن أسمع شيئاً من هذا... سيريوجا، أعلم أن هذا شيء سيىء، وينبغي ألا يُفعل. لكن لا يهمّني إذا كنت رديئة، أرجوك قبِّلْني!

لم يتردَّد راخمانينوف إلا بضع لحظات. كانت عاطفته الفتيَّة تصارع في داخله وساوس أصبحت بالية. ثم أخذ يدها وقرَّبها من شفتيه. عندئذٍ وقفت «فيروتشكا» على أصابع رجليها وضمته إليها وقبلته في شفتيه.

* * *

قبل أن تنام «ناتاشا»، ليلاً، سمعت نقراً. ركضت إلى النافذة مرتدية ثوب النوم الطويل الأبيض الذي كان يجعلها كالطيف، وأزاحت الستارة. كانت «فيروتشكا» رافعة رأسها وقد أضاءه القمر وبدا شعرها أخضر وأصبح لون عينيها الزرقاوين أسود حالكاً كانت بالغة الجمال، مدهشة بجمالها.

همست فيروتشكا: إنه يحبني... هل تفهمين؟ إنه يحبني لقد تحدّثنا.

تمتمت ناتاشا: كم أنتِ سعيدة! يا إلهي، كمت أنت سعيدة!

ـ شكراً يا ناتاشا: أنتِ طيِّبة وكريمة. ليس من أحد سواك أستطيع أن أبوح له بسري. أنت أفضل صديقة لي.

قدَّمت فيروتشكا لها هذه الكلمات الحنون بجمع يديها، وبكرمٍ بالغ. ولقد كانت تملك قدراً منها لا ينفد.

لكن النافذة المجاورة لغرفة «ناتاشا» صرَّت فاكتسحت الريح فيروتشكا.

أسدلت ناتاشا الستارة ببطء واقتربت من سريرها، فأسقطت رأسها على الوسادة، وأخذت الغصَّات تهز جسدها النحيل.

* * *

ودموع أخرى كانت تتساقط، دون إرادة من عيني «إيفان» السمراوين كالليل، الذي كان يودِّع مارينا: لقد حلَّ يوم رحيل أصحاب أملاك «إيفانوفكا» ومدعويهم. وكانت الخيول قد رُبطت وانتهى تجهيز الحقائب. أرادت «مارينا» أن تمسح أنف «إيفان» بكم قميصه بالذات، وقالت له: كفى بكاء، أعطني قميصك لأمسح دموعك.

أبعدها حبيبها: كفى! لماذا أنت ذاهبة! ما الذي لم تَرَيْه هناك؟

ـ إن مكاني بالقرب منهم، أنت تعلم ذلك جيداً.

ـ لماذا؟ ألا يمكن للمرء أن يعيش هنا؟ ألم تملي من تمسيح مؤخراتهم؟

كان غضب «إيفان» يشفّ عن شعور يوشك أن ينحدر إلى غضب حقيقي يستبد بفتى بالغ..

ـ كم أنت خَشِنٌ يا إيفان! لماذا تكرههم؟ إنهم أسياد طيِّبون!

قال إيفان بصوت المراهق الواثق من نفسه:

ـ ليس هناك من أسياد طيبين. وحتى ولو كانوا قد صُنعوا من السكر الخالص، فأنت من جماعتنا. ما هي علاقتك بالمدينة؟

ـ وما عساني أفعل هنا؟ أن أنظر إليك طيلة الوقت؟ طويل كثلاث تُفَّاحات، وفوق ذلك فيلسوف!

ـ لا تقولي كلاماً كبيراً يا مارينا، هل تسمعين؟

دوَّى صوت السيدة «ساتينا»: «يا مارينا!»... فركضت الفتاة مستجيبة للنداء.

أقلع قطار عائلة «سكالون»: عربة السيدات وعربتان لنقل الحقائب.

أما قطار عائلة «ساتين» فكان مختلفاً تماماً. ففي المقدمة، كان راخمانينوف يترنَّح مع الحقائب بقبعته البيضاء وكان يرافقه أخو «ناتاشا» الأكبر، «ساشوك». كان بوسع راخمانينوف دون شك أن يستغني عن هذه الرفقة إذ أن «ساشوك» كان قد وجد في مكان ما آلة نفخ وكان يحاول أن يستخرج منها سوناتة «لشوبان» وقد رافقت هذه الموسيقى المأتمية الرحيل.

وبالرغم من صرخات أمها القاسية، كان «فيروتشكا» تحاول، طيلة الوقت، أن تخرج رأسها من العربة لترى قبعة راخمانينوف البيضاء العالية وإذا بمنعطف طريق يضع حداً لمحاولاتها.

كانت عربة عائلة «ساتين» الواسعة الثقيلة تسرع شيئاً فشيئاً وكان الخدم والمربية في العربة الخلفية. أما «مارينا»، بصفتها ذات حظوة، فقد كانت ترافق أسيادها، وهي جالسة على كرسي متحرك. وكانت تشارك في الحديث العام دون أن ترى «إيفان» بقميصه الهندي الذي بُولغ في غسله وهو يركض بمحاذاة الطريق بسرعة القطار نفسه، وهو يختبىء وراء الأدغال والنباتات الكبيرة والأكاليل.

لم يكن يختار طريقه، فكان يتعثر ويقع. وكان قد مزق سرواله عن الركبة، يجرح يده وجرح أحد مرفقيه. ولكن كل هذا لم يؤثر على دخيلته التي كانت يسيطر عليها انفعال واحد بلا منازع: يأس الفراق... واستمر يركض حتى عندما أسرع القطار ليصعد أكمة، واختفى في غيوم الغبار الذهبي.

* * *

في غرفة صغيرة من مبنى مفروش ومغلق يحمل اسم «أميريكا»، كان غيم من الدخان الأزرق يتطاير في هذا الفجر

الشتائي. وكانت أعقاب السجائر ترقد في كل مكان، في المنافض والأكواب وعلب البيرة والصحون والأوعية التي كانت تنمو فيها نباتات ذابلة. وكانت مقطوعة موسيقية باسم «في صمت الليل الغامض» تتردد معزوفة بآلة نفخ غير متماسكة، لكن الموسيقى كانت عذبة ونقية، يرافقها عزف آلة بيانو مشوَّشة الأنغام.

كان «راخمانينوف» قد تغير حتى لم يعد يعرفه أحد. فقد أصبح أطول مما كان منذ الأيام التي أمضاها في «إيفانوفكا» وتغيرت تسريحة رأسه، بعد أن حُلق شعره الطويل، قال لواحد يصعب تمييزه وراء الدخان إذ انتهى العزف:

ــ هذا كل ما بقي من هذا الصيف...

أجاب صاحب آلة النفخ: يا لها من معزوفة، لكأننا في حانة ريفية.

ــ فعلاً، إنها تصدر من هناك. ومن أي مكان آخر تريد أن آتي بها؟ نعم، هذا كل ما بقي في صيفي الذهبي: هذه المعزوفة، وعطر الليلك، وحزن يفتّت الروح.

ــ هذا ليس بالقليل. فالآخرون لا يملكون حتى ذلك.

قال راخمانينوف بابتسامة ذابلة: وهل تعتقد أن هذا يؤاسيني؟

ــ ليس كل شيء بالسيىء. فقد أنهيت دراستك في المعهد بنجاح باهر. وعزفت مقطوعتك في «البلشوي»...

ــ حيث عزفت مرتين فقط. وانتهى الفصل ونُسي كل شيء.

ــ أما في مدينة «كياف»...

ــ مقطوعتان جديدتان... فمقطوعة «اليكو» ليست سوى عمل هواة ولا تستحق مصيراً آخر. لكني فشلت في كل مكان: فالكونسرتو للبيانو لم يحظ حتى بالتنويه، ومعزوفة «السانفونيّة الأولى»... لكنك تعرف كل هذا.

ــ إن «كلازونوف» رئيس أوركسترا فاشل...

ــ فليكن... لكن «سمفونيته» الخاصة أحدثت وقعاً مشهوداً. أما سمفونيتي أنا، فقال عنها «سيزاركوي»: «أُلّفت لتنال إعجاب شياطين جهنم كلهم».

ــ لقد ورثتُ عنه حسده «لتشايكوفسكي»... وبالمقابل، فإن جولتك في لندن...

ــ لقد سبقني إلى هناك «جوزف هوفمن» الذي كسب قلوب الشعب الانكليزي. أما أنا، فلم أستحق أكثر من ترحيب بارد.

ــ لقد قُدْتَ أوركسترا عند «مانوتوف»...

ويوم غادرت هذا الآخر مع موهبته وطيشه ودسائس المايسترو «اسبوزيتو» وإنجازاته ومداعباته السمجة، كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتي... إنك تحاول مؤاساتي، لكن ذلك ليس سوى صبينة. كانت الشمس تدفئني وكنت شاباً عاشقاً وواثقاً من نفسي. وكإنسان محروم من الأمومة والأبوة، كنت أحلم بأن أثأر لذلك. كنت أرى نفسي محبوباً من الجميع وشهيراً وسنداً لأم حزينة وأب فاشل. لم أنجح في تحقيق أي من ذلك. أما حبيبتي، فقد أصبحت زوجة لصديق طفولة لها. مما أسعد أهلها والمجتمع بأكمله ــ لقد قُتلت موسيقاي وفشلتُ في مباريات «بتسبورغ». وكنت وارثاً منسياً «لتشايكوفسكي» لكن المأساة هي... المعطف. تصوَّر أن حبيبتي وأخواتها اشتركن لشراء معطف دافىء لي. وكانت لدي دناءة أن أقبله. كنت أعاني البرد إلى حد العجز عن تحريك أصابعي. والواقع أن خبزي كان من تعليم البيانو. ولم يكن بإمكاني أن أتدنى أكثر من هذا.

ــ ولماذا تركت عائلة «ساتين»؟ لقد كنت مرتاحاً هناك.

ــ كم من الوقت يمكن للمرء أن يتطفّل على طيبة الآخرين؟ كانت هناك قريبتي، فتاة شابة تدعى «ناتاشا». لا أعلم ماذا فعلت لأستحق ذلك، لكنها كانت تتلف حياتها من أجلي. إن ذلك لا يطاق. أشعر أنني أكثر الناس جبناً.

ــ لكن لك رفيقة؟

ــ آه نعم، فلست «كازانوفا» أكثر مما أنا «موزار». قُبل الأيادي، قبلة على الرقبة، دمعتان صغيرتان، وها أنا أركض في «موسكو» باحثاً عن زوجها المتقلب. فالخيانة الزوجية قذرة، لكن المحاكاة الساخرة لهذه الخيانة أكثر قذارة. فأنا أشترك في خدعة... لكني كنت مستعداً لتحمل كل هذا، لو أن الموسيقى عادت. يبدو لي في بعض الأحيان... لا، من المبكر جداً أن أتكلم عن هذا. لا بد أنني مريض، مريض جداً. إن محور حياتي نفسه قد تأثّر. وهؤلاء الطيِّبون الذين يعلفونني بأدوية للزكام لا بد أنك مللت مني كثيراً... ولكن لمن سواك أتكلم بكل هذا؟ لقد طلع الفجر وحان الأوان للتوجُّه إلى الصلاة.

ــ هل أصبحت متديناً؟

ــ لا، لكن لا أعلم لماذا، أحتاج لهذه الصلاة. وفي دير «أندرونيكوف»، هناك كورس مدهش. أستمع إليه فأشفى... لا لوقت طويل. أرجوك، قبل أن نفترق، غَنِّ لي أغنية «يا طفلة، كالوردة أنت جميلة». فهذه الأغنية كرَّست أيضاً لتلك التي أحرقت رسائلي حين ذهبت لتتزوج... ماذا تنتظر؟

لوَّح «راخمانينوف» بذراعيه ليبعثر الدخان الأزرق الغامق الذي

كان يملأ الغرفة. واقترب من البيانو حيث شاهد مقعداً يتحرك خالياً.

ـ أين أنتَ؟... ذهبت... لعلّك لم تأت أصلاً؟... إذن من كان يكلمني؟ ضميري الذي يزدوج... وكيف لا، ولم أتعلم كيف أفتح قلبي للآخرين... إنني أصمت و... أهلوسُ... لقد ذهبتَ بعيداً يا سيريوجا راخمانينوف، لا تنس طريق العودة...

خلع معطفه العتيق المبطن ببطانة قطنية من الحائط، ووضع قبعة على رأسه ولفَّ رقبته بوشاح. فتش مطولاً على قفازيه ووجد قفازاً واحداً ممزقاً عند الأصابع فأدخله في يده اليمنى.

بعد أن اجتاز ممراً شبه مظلم، خرج إلى الشارع الأزرق الذي كان قد بدأ يضيء ومشى، جنبه الأيسر ملتفت نحو الريح التي كانت تجلده بحبات ثلج جافّة.

كانت تقترب منه، ثم تتجاوزه، أطياف المارّة السوداء. عجائز يُسرعن إلى الكنيسة، وتلاميذ، وعرسان يحتفلون بالزواج، وتائهون ذوو شعر طويل لا يعني الوقت لهم شيئاً. ومن وقت إلى آخر تمر عربة، تحمل ركاباً قد أخذهم الحذر يخبئون أنوفهم داخل ياقاتهم.

بلغ حيّ المصانع. كانت مداخن عالية ترتسم على صفحة السماء التي كانت تزداد انقشاعاً. وكان رجال مقطّبون رماديّون، ما زالوا ناعسين، كالمحكوم عليهم يتقدمون نحو هذه المداخن المليئة بالسناج. كانوا مواطنين مثله وعمالاً فقراء مثله، هو أستاذ الموسيقى الصغير الذي يحصل على لقمة العيش بشكل مشتّت. لكنهم كانوا ينظرون إليه بحذر، متجاهلين أنه واحد منهم.

قال أحدهم عندما رأى راخمانينوف واقفاً عند زاوية طريق: «ابتعد يا سيد!...».

كان المارة يصطدمون به ويدفعونه ـ ذلك كان صدفة، لأنهم كانوا شبه نائمين ـ لكن كان يخيل لراخمانينوف، بسبب مرضه، أن هذا الجمهور المظلم المُغِمّ كان مستعداً لأن يدوسه بأقدامه. وناداه صوت شابّ: سرغاي راخمانينوف!

التفت راخمانينوف: اقترب منه مبتسمًا، شابٌ يرتدي لباس طالب وقبعة ذو خدّين أحمرين.

ـ ألم تعرفني؟ أنا «باشنتساف» طالب طب. لقد التقينا في منزل «بوياريشنيكوف»، وكنت قد أعطيتَ ابنته دروساً بعزف البيانو. وكنت أنا أعطي ابنه العلوم. ولم يحرز الاثنان أي نجاح.

ابتهج راخمانينوف، شاعراً أن هذا الشاب يحميه من الجمهور الرمادي المعادي الذي كان يسيل في الشوارع: صباح الخير يا «باشنتساف».

قال الطالب بصوت عطوف: إنك لا تبدو بصحة جيدة.

ـ بالفعل، أنا مريض قليلاً... ثم إن هؤلاء الناس يكرهوننا.

ـ العمال؟... ولماذا تراهم ينبغي أن يحبونا؟

ـ هذا فظيع...

ـ ليس فظيعاً بعد... لكنه سيصبح فظيعاً... يمكنك أن تصدّقني. لن يكون الحقد تجاهنا نحن الاثنين شخصياً، أنت موسيقار وأنا طالب، بل تجاه أشخاص كثيرين من محيطنا.

ـ إنك تبدو مبتهجاً لذلك.

ـ بالطبع! أنا مبتهج من أجل روسيا: فالشعب يستيقظ هل تذكر ما قاله «تشيكوف» عن الدم الذليل؟ لا يمكن أن ننضحه إلا شيئاً فشيئاً من عروقنا، لكي يسيل مكانه دم آخر.

ـ فليُنضح! المهم أن لا يسيل متدفقاً.

ـ إن الثورات الخالية من سفك الدماء نادرة.

ـ أوه! أنت تنظر إلى بعيد.

ـ وماذا تظنّ؟ لقد تنبأت ذلك بنفسك.

وأخذ الشاب يغني بصوت خشن، لكنه موسيقيّ وقويّ:

«ويعلنون في كل مكان
ها قد أتى الربيع، الربيع الشاب
ونحن رسله».

أضاف ثلاثة شبان نصف مثقفين، تقنيون وكهربائيون ومركبو صفحات جرائد بصوت واحد:

«لقد دفعنا إلى الأمام
دفعنا إلى الأمام
ها هو الربيع، ها هو الربيع!».

استمع راخمانينوف بدهشة إلى لحنه هو الذي بدا، وقد غنّاه الشبان، كأنه موعظة، أو نشيد وطني تقريباً.

سأل أحد المغنين مغتاظاً من راخمانينوف: وأنت، لماذا لا تغني؟

قال «باشنتساف» مدافعاً عن راخمانينوف: إنه مؤلف هذه الموسيقى.

لطفت النظرات، لكنها ظلّت ممحّصة. وقال الشاب نفسه بلهجة سخرية:

ـ يبدو أن هذا الرجل لم يفهم ما ألّفه هو نفسه.

ومضى الثلاثة ضاحكين.

قال «راخمانينوف» حالماً: لا بد أنه على حق. ولماذا يجب علي أن أفهم موسيقاي؟ إن الموسيقار يجيب العالم كأنه الصدى.

قال «باشنتساف»: وداعاً أيها الصدى. وامض في إجابة العالم، فذلك أذكى من تحليلاتك.

ودون أن يلتفت إلى الوراء، اختفى في الزحام.

أخذت أجراس الأربعين كنيسة في موسكو تقرع. استيقظ راخمانينوف من غيبوبته وحثّ خطاه. كان يرى من بعيد دير اندرونيكوف. وزادت ثرثرة الأجراس اللطيفة والرنّانة. وكان يمكن للأذن المرهفة أن تعرف أجراس كنيسة «الدورميسيون» وجرس «بيلوخوفسكي» المصنوع من الصلب والنحاس وجرس «سان نيكولا سور ليسابل» كانت الأجراس تتحدث فيما بينها، وتوقظ ذكريات طفولة، متسللة إلى أعمق الأعماق حيث تولد الموسيقى في نفس راخمانينوف الذي كان يجهل ذلك.

بالرغم من أنه خرج باكراً من منزله، وصل متأخراً إلى الصلاة. نزع قبعته ودخل الكنيسة فأشعل شمعة بالقرب من أيقونة «القديسة العذراء». ثم تسلّل بين المصلين ليكون أقرب إلى الكورس.

أومأ رئيس الكنيسة بيده، فبدأ الكورس ينشد بصوت عال ونقي أغنية المجد لله. لم يكن ثمة من يدري أن السنين ستمر وأن في نفس هذا الفرد المتواضع بمعطفه البالي، ستتحول هذه الأناشيد الكنائسية إلى مقطوعات موسيقية «كطقس حنا الكريستوستوم المقدس» ومقطوعة «صلاة العصر والفجر».

* * *

في شقّة مرفهة في موسكو يملكها تاجر متعطش للثقافة، فالأثاث صلب وثقيل ــ كان أحدهم يعزف على ملامس البيانو بعناد وراء أبواب غرفة عالية. لم يكن يُعزف سوى سلم الأنغام، لكن حسناء «الشال المهدّب» التي كانت قد ألصقت عينها على قفل الباب كانت تظن أنها تستمع إلى أنغام من الجنة.

لا يمكن للمرء أن يقول الشيء نفسه عن الأستاذ الشاب، «راخمانينوف». فمن حسن حظه أن التلميذ المجتهد منهمك بعاج البيانو الأسود والأبيض، دون أن ينظر إلى أستاذه، وإلا لكان راخمانينوف قد اشمأزّ من الموسيقى طيلة عمره. وتكشيرة الاشمئزاز التي كانت تشوّه وجه راخمانينوف المتطاول كانت تتطلب دون شك سيطرة كبيرة مهنية من جملة المشاعل في الزياحات الجنائزية. وكانت نظرة «راخمانينوف» التي يُعكّرها من وقت إلى آخر إحساس قريب من الكراهية، متركزة على رقبة تلميذه المستديرة العنيدة البلهاء.

في تلك اللحظة، دقّت ساعة الحائط السادسة. ومسح راخمانينوف وجهه بيده وكأنه يتخلص من شبكة الملل الشبيهة بخيوط العنكبوت. وقد بقيت قسمات وجهه مريضة وحزينة، لكن شعاعاً من الحياة أضاء عينيه.

ــ هذا يكفي، يا طفلي، هذا كل شيء اليوم. كن مستعداً جيداً للمعزوفة نفسها في الدرس القادم. اتفقنا؟

قال التلميذ بمرح: اتفقنا، يا سيرغاي راخمانينوف! وكفّت رقبته عن أن تبدو بلهاء، وتحول بأكمله إلى صبي مرح وجذاب.

سألت الأم الشابة التي كانت تنتظر راخمانينوف قرب الباب بصوت نائح: ما هي نتائجه؟

ــ لن يصبح «روبنستاين» ثانياً، لكنه دون شك سيتعلم السلم الموسيقي.

ــ أفعل كل ما يمكنك فعله يا سيرغاي راخمانينوف. فنحن التجار لا يمكننا أن نتقدم خطوة واحدة دون موسيقى.

ــ إنني أفعلُ ما أستطيع، يا سيدتي. لكن الأمر لا يتعلق بي وحدي.

ــ شكراً جزيلاً.

سلمت المرأة عليه وكما تفعل مع الطبيب، وضعت راتبه في راحته.

ولم يفهم وقال مستاءً ومرتبكاً: «ما هذا؟ آه أشكرك!» وأخذ قبعته تحت ذراعه وركض نحو المخرج.

* * *

في المساء، بدّل راخمانينوف ثيابه في غرفة الفندق الكئيبة، وارتدى على مهل قميصاً قديماً أبيض ذا أكمام مدعوكة ومقدّم قميص وعقدة عنق سوداء وبدلة تلمع عند المرفقين.

وكانت عربات فخمة تصل الواحدة تلو الأخرى، حاملةً ركاباً تكسوهم الفراء، وكانوا يترجلون بأناقة أمام مدخل المطعم الشهير «يار» المشعشع بالأنوار. ووصل راخمانينوف بدوره في عربة «فانكا» رخيصة، ودفع مالاً للحوذيّ ودخل المطعم.

وبعد أن تخلّص من معطفه، اختار كعادته أقل الطاولات إثارة للانتباه. وكالعادة كانت القاعة الفخمة تغصّ بجمع مختلف: نبلاء موسكو وضباط معروفون وتجّار شبّان ذوو محافظ ممتلئة ومهندسو سكك الحديد وممثّلون وكتّاب وصحافيون وفرسان جاؤوا من المضمار المجاور ليحتفلوا بانتصاراتهم الاحتياليّة.

انفجرت القاعدة تصفيقاً. كانت حفلة الجوقة الشهيرة «سوكولوف» التي تجتذب هذا الجمع الكبير إلى قاعة «يار» قد ابتدأت. وكالعادة، استهلّت هذه الحفلة «بأغنية الاستقبال»:

أي شيء أروع
من أغنية الغجر الحنون
عندما تأتي لتقول لكم بحبّ
صباح الخير.

ثم كان دور العازفين المنفردين. وكانت أصوات النساء الخافتة المؤثّرة وأصوات الرجال الخشنة تسحر الجمع اللجب الثمل في المطعم.

كان راخمانينوف يستمع إلى أغاني الغجر بالتركيز نفسه الذي استمع فيه إلى كورس دير «اندرونيكوف». ومن يدري، ربما ولدت مقطوعته «الغجر النزوي» هنا لكنه عندما أخذت المطربة الشهيرة «نونا» تغني، اختفى راخمانينوف الموسيقار ولم يبق إلا راخمانينوف الرجل المعذَّب. وقد اغرورقت عيناه، لكنه لم يمسح الدموع إلا عندما انطفأت النغمة الأخيرة.

دوى صوت «فيودور إيفانوفيتش شاليابين»، صوت رنّان وجميل وقويّ وفريد: ها هو ذا! مَنْ حَسب أنه أخذ أضحى مأخوذاً!

واقترب من راخمانينوف فاتحاً ذراعيه وقبّله بشدّة. كان يتميز بصخَبه هو الضخم الذي كان يحب استلفات الأنظار. وفوق ذلك، كان الخمر قد هاجه.

ــ لماذا تجلس هنا كالبوم؟ تعال معنا... إن جميع المحتفلين هناك.

كشّر راخمانينوف قائلاً: لا أحب المجتمع الضاجّ.

صاح شاليابين:

ــ ما من أحد يأتي إلى مطعم «يار» ليتمتع بالصمت!

لكن روحه الفنّانة والحساسة، بالرغم من السكر، همست في أذنه أن صديقه كان منزعجاً. فبدّل لهجته على الفور:

ــ لماذا أنت مهمَوم يا سيريوجا؟ هل أنت بحاجة إلى مال؟ هل تريد أن أغني؟

امتلأت عينا راخمانينوف بالحنان ــ نعم! أغنية «العيون السود».

غمز شاليابين عازف الكمان الغجري الذي دخل فوراً في الرقصة: العيون السود، العيود السود... ثم صمت بتقوى وصمتت معه القافلة الضخمة.

قال شاليابين دون أن يغني، بصوت ينبع من أعماق نفسه: «أيتها العيون السود، أيتها العيون المشغوفة، أيتها العيون المحترقة والرائعة... لقد تسببت في هلاكي...».

وضغط راخمانينوف بيديه على صدغيه: كان في صوت هذا الرجل الرائع شيء من السمو.

وأنهى «شاليابين» أغنيته تحت هتاف ترحيبيّ صاخب.

قال بغضب مصطنع: لا! لقد غنيت لك وحدك، لا للمطعم... هيا، تعالَ...

ــ دعني! سيكون ذلك لمرة قادمة.

ــ كما تريد. أما أنا، فاليوم سأسرف في الإنفاق.

عاد شاليابين إلى طاولته، مبعداً الزبائن الذين اعترضوا طريقه. أما راخمانينوف فدفع ثمن زجاجة النبيذ التي لم يشرب منها قطرة وخرج من المطعم... وعندما وجد نفسه في الشارع، شعر أنه منزعج جداً: كانت أضواء الفوانيس تترنّح وتنطفىء ثم تشتعل فجأة من جديد بشعاع وحشي.

تمكن بعد جهدٍ أن يلفظ: شارع «بياتنيتسكايا» ــ وسقط داخل إحدى العربات. ارتقى السلم الوعر وقرع الجرس. فتحت الباب صاحبة البيت، «آنا الكسندروفنا ليديجانسكايا»، امرأة في السادسة والعشرين من عمرها. كانت جميلة تقريباً وطيبة تقريباً وذكية تقريباً، إلا أن كل هذه المزايا كانت قد انحلت في عجزها واضطرابها تجاه الحياة.

ــ سيريوجا! يا لها من سعادة!... لقد اختفى زوجي «ليديجنسكايا» من جديد. إبحث عنه، أبتهل لك!

ــ يا إلهي! إنني لا أفعل سوى ذلك... أبحث عن زوجك «بيوتر فيكتوروفيتش» وهذا ما يكرهه هو نفسه.

ــ يا سيريوجا! أنت أنبل الرجال وأكرمهم وأوفرهم فروسية!

ــ لكني، يا عزيزتي، مريض ومحموم... إنني سأنهار...

ــ خذ هذه الحبّة وستتحسّن خلال دقيقة.

وبصدفة غريبة، كان الدواء في جيب قميص «آنا الكسندروفنا» الأعلى.

لم يسع راخمانينوف إلا أن يقول: «يا إلهي!». وغطس ثانية في برد تلك الليلة العاصفة والثلجية...

طاف راخمانينوف بمقاهٍ صغيرة من درجة متدنية كانت فتيات فقيرات ملطخات بالألوان يتجمعن بالقرب منها. وكان يدخل إلى مشارب مثيرة للاشمئزاز وقاعات «بيلياردو» سوداء من الدخان. كان يخرج من الجوّ البارد ويغطس في دفء هذه القاعات البخاري، ثم يخرج من جديد إلى البرد القارس. لكن ناره الداخلية كانت محرقة إلى حدّ أنه لم يكن يلاحظ تغيرات الحرارة هذه. وأخيراً اصطدم «بيوتر فيكتوروفيتش» السكران في مقهى «داريال». أو أن «بيوتر» هذا هو الذي شاهد راخمانينوف فابتعد من الحلقة المشبوهة التي كانت تحيط به وارتمى عليه معانقاً ليدعوه للانضمام إلى طاولاتهم.

ــ يجب عليك أن تعود إلى المنزل يا بيوتر فيكتوروفيتش! لقد ملّت «آنا الكسندروفنا» من الانتظار... وهي قلقة.

قال «بيوتر» بصوت مصطنع: «يا لها من امرأة قديسة! إنها

شهيدة... روحها معذبة... قدِّرها يا سيريوجا، فهي ليست كالآخرين...

ــ رفع سبابته وتأمل راخمانينوف بنظرة قاسية ثم أنهى حديثه بلهجة مختلفة جداً:

ــ «لن أذهب من هنا».

أصرَّ راخمانينوف: يجب عليك أن ترحل.

ــ لن أرحل... لقد وطئت بقدميها... وطئت بقدميها...

قال راخمانينوف مستاء: ما الذي وطئته؟

أجاب «بيوتر»: سوائل قلبي (ثم نهض على رأس قدميه وهمس في أذن راخمانينوف): ما هو الأفظع: خيانة الجسد الزوجي أم خيانة الروح الزوجية؟ ذلك هو السؤال اللعين.

أمسك به راخمانينوف من وسط جسمه وجرَّ هذا البدين حتى باب الخروج. وحين تسلَّق «بيوتر» السلَّم الصغير المؤدِّي إلى حجرة الثياب، تمسَّك بالدرابزين وأخذ يغني بأعلى صوته مقطعاً من «لويزا ميلر»:

بالابتسامة الحنون نفسها
همست: «لا أحب سواك»
وكانت تخونه... تـ ـ ـخـ ـو ـ نه
بالخفة نفسها!

وكانت تلك الموسيقى معزوفة أخرى من أوبرا «لفردي».

ثم ارتدى معطفه وخرج إلى الشارع. ووضعه «راخمانينوف» في عربة وطارا في الثلج الذي كان يلطم الوجوه.

أمر راخمانينوف الحوذي، بالقرب من منزل عائلة «ليديجنسكايا» بأن ينتظره. وساعد «بيوتر» على صعود السلم وقدَّم لزوجته الحمل الثمين. تمتمت «آنا الكسندروفنا»: ألا تدخل؟

ــ أفترض أنك تستطيعين وحدك أن تضعي زوجك في سريره.

وقفز راخمانينوف الأدراج، مستنداً إلى الدرازين: كانت غرف أوتيل «أميريكا» المثيرة للاشمئزاز تبدو له الآن كأنها الأرض الموعودة.

تلك كانت حياة «راخمانينوف» أثناء نوبته الروحية الأكثر قساوة. كان النهار يبدأ في دير «أندرونيكوف» وينتهي بأنغام أغنيات الغجر أو بالبحث عن «ليديجنسكي» المتقلب.

أدار «راخمانينوف» رأسه على الوسادة وفتح عينيه. لكنه في عتمة الغرفة ذات الستائر المغلقة، لم يستطع أن يُمَيِّز شيئاً. كان يعرف هذه الطاولة والمكتب والمقاعد والشعاع على البيانو الذي يحتلّ زاوية الغرفة وإناء الليلك... لكن ذلك لم يكن له أية علاقة مع حياته المغلقة التي كان يعيشها في غرف أوتيل «أميريكا». كانت تقوم بالقرب من سريره طاولة مليئة بالأدوية وعليها شراب في فنجان أنيق. وقد أراد أن يتناول الفنجان، لكن يده سقطت دون قوة. ثم سمع صوتاً: «إنـي أخاف على عقله...» كان صوتاً نسائياً، صوتاً مألوفاً. ودمدم صوت رجل جواباً لم يتمكن من تمييز كلماته، ولأن أقلّ انفعال كان يفوق قدرات جسده الضعيف، فقد غرق راخمانينوف في النسيان...

عندما أفاق من غيبوبته، كان الليل قد هبط وراء النافذة. كان ضوء قنديل السرير الخافت المقطوع عن المريض بحجاب، يسقط على وجه آنسة شابَّة لم يكن من اليسير أن يتعرَّف المرء فيه وجه «ناتاشا ساتينا»، الصبية ذات الشفتين المكتنزتين. كان فقط لونها الأسمر الفطري وشعرها الكستنائي الكثيف وجبينها العالي النقي تذكر «بناتاشا» القديمة. لقد أصبحت الآن فتاة جميلة، طويلة القامة يحمل وجهها سمة الإرادة القوية والصبر. ولم تكن «ناتاشا» تغادر بعينيها المريض الغائب عن الوعي. وها هويئن ويدحرج رأسه على الوسادة. واقتربت «ناتاشا» فعدَّلت الغطاء المنزلق ومسحت الجبين الذي كان ينضح بالعرق ورتَّبت الوسادة. ثم وضعت رأسها على قلب «راخمانينوف» الذي كان يخفق بتثاقل وعادت إلى مكانها.

فتح الباب ودخلت «مارينا» الغرفة. لم تكن قد تغيَّرت قط. لكنها أصبحت أكثر وقاراً: كانت الأعجوبة الصغيرة الذهبية قد تحوَّلت إلى معجزة كبيرة شقراء. قالت بصوت مليء دون أن يكون غليظاً:

ــ استريحي يا ناتاشا. ألم يستيقظ بعد؟

ــ فتح عينيه مرة أو مرتين، لكن لم يكن فيهما ضوء. إن صحته ليست جيدة يا مارينا... إنه مريض جداً.

قالت مارينا بصوت مُطْمَئِن: لقد انقضى ما هو الأسوأ، هذا ما قاله الطبيب لوالدتك. وقد سمعت ذلك بنفسي.

ــ لنأمل ذلك!... حسناً سأذهب. ستحلّ محلّك «صوفيا الكسندروفنا».

ــ يمكنها أن تنام براحة. يجب أن تدرس. أما أنا، فسأنام أثناء النهار.

ــ لا، أنت متعبة جداً.

ــ كما تريدين.

وأخذت مارينا مكان «ناتاشا».

وما إن أغلقت «ناتاشا» الباب حتى اقتربت «مارينا» من الأيقونة التي كان يضيئها نور القنديل الدافىء ركعت وهمست:

ـ يـا إلهـي! إبـعـث الـشـفـاء إلى سـيـريـوجـا راخمانينوف ـ يا رب، أظهر طيبتك واطرد المرض...

أنَّ راخمانينوف بصوتٍ عال. فنهضت مارينا واقتربت من المريض.

ـ هل استيقظت، يا سيريوجا راخمانينوف؟

لم يكن راخمانينوف يراها ولم يكن يسمعها، بالرغم من أن عينيه كانتا مفتوحتين على سعتهما. لكن نظرتهما كانت منقلبةً إلى الداخل. كان يرى أمامه صوراً مشوّهة وممسوخة. فتارةً يظهر وجه «كلازونوف» الأحمر المأخوذ الذي كان قد ترك العنان لأوركستراه وقتل دون مبالاة سنفونية راخمانينوف. ويسمع «راخمانينوف» هذه الموسيقى التي كان قد أحبها ولعنها كثيراً. وطوراً يرى وجه «سيزار كوي» الساخر أو وجه الناشر «بيسليائيف» المحتقر. وكان يرى نفسه في جوف المقصورة، لكنه يسمع الضحكات والضجيج وسعال الجمع وعطاسه، وطوراً يرى نفسه هارباً من سلم المسرح المعتم. وتارة أخرى يرى «فيروتشكا» وهي تحرق رسائله في المدخنة الواحدة تلو الأخرى وتلتوي الأسطر الحبرية، ويحترق الورق. وكان يتعالى دخان كثيف يملأ الفضاء. ومن هذا الدخان وتلك النار، كان يخرج رأس «فيروتشكا» تحت إكليلها العرائسي... وتتطاير سدادات زجاجات الشمبانيا ويفور النبيذ في الأكواب. لكن فم «فيروتشكا» لم يكن يلتقط سوى عنقود الليلك الأبيض المغطى بقطرات الندى. ومن جديد يلوّح «كلازونوف» بعصاه باتجاه فرقته الموسيقية ويرتفع صوت «شاليابين» الرائع وسط مطعم «البار» ـ الخالي والحزين بسبب هذا الفراغ ـ ليغني «أيتها الطفلة، كالوردة أنت جميلة». وتارة أخرى يظهر وجه «ليديجسنكايا» الممتقع يؤكد بصوت زوجها السكران: «لقد وطئت بقدميك سوائل قلبي». وأنهى الجمع الأسود في الشارع المعتم قبل طلوع الفجر بصوت منذر: «لقد حكم عليك بالإعدام بسبب صمتك» ومن جديد وجه «كلازونوف». لكن لم تكن تتدحرج من عصاه أية موسيقى، ولو كانت قبيحة: بالرغم من أن عازفي الناي والبوق نفخوا خدودهم وعازفي الكمان حركوا أقواسهم والطبل قرع الدف وجلد الحمار...

تحرَّك راخمانينوف. فوضعت مارينا يدها على جبينه... قالت بصوت يغني وبعطف فلاحة: مسكين يا أستاذ! ـ وقطع صوتها الناعم الصمت الذي كان يغمر المريض.

قال وقد تركزت نظرته الفارغة: إنني أسمع ـ يا حنونتي ـ كان صوته ذا حنان لا يصدق ـ هل أتيتِ؟... لقد انتظرتك طويلاً!...

وامتدت يداه نحوها والتقطت أصابعه الطويلة النحيلة منديل مارينا المتدلي على كتفيها.

ـ يا سيريوجا راخمانينوف، يا صغيري، ما بك؟

ـ كنت أعلم أنك ستأتين ـ كل شيء كذب، لا حاجة لشيء. ليس هناك سواي وسواك.

وشدَّها إليه بقوة يعجز عنها مريض... لم تكن «مارينا» تفهم شيئاً. كان يحترق في عينيها فرحة من يعترف، ولكن الكلمات لم تكن بالتأكيد موجهة إليها. لم تكن تدري ماذا تفعل وارتجفت شفتاها عجزاً.

كان راخمانينوف يقول: يا حبيبتي! تعالي إليّ... ما أشدّ حاجتي إليك... يا إلهي، كم كنت مريضاً.

كانت مارينا فتاة قوية، لكنها لم تكن تستطيع مقاومة شخص مريض، وخاصة وأنها كانت قد عاشت في جوّ مليء بالإعجاب تجاه راخمانينوف. وخضوعاً منها لغريزة الطاعة المتأصّلة فيها وجدت نفسها بين ذراعيه. وكان يهمس ويتمتم بكلام مبهم، وكانت الدموع تسيل من عينيه. وقد أحست «مارينا» بكل حرارة مرضه وشغفه، فأصيبت بالدوار. لم تكن قد سمعت قط كلمات كهذه. إذ كان «فانيا» يفضل لغة التهديد أو الشكاوى. وكذلك خطاب الحركات، حركات وحشية من وقت إلى آخر. وكانت تتشرَّب دونما تفكير كل ما كان موجهاً لامرأة أخرى.

كانت مارينا تقبّل راخمانينوف وتداعب شعره المختلط الرطب. وظلت في ذلك حتى عندما هدأ على كتفها.

ابتعدت منه بحذر وقالت: يا صغيري المسكين!

وكان راخمانينوف قد نام، وكان نفسه العميق قد انتظم، وعاد الهدوء إلى جفنيه المسودّين...

كان الصباح قد أقبل عندما استيقظ راخمانينوف. وقد رأى خيطاً من الشمس أغبر يذوب على الستائر ووجه «سونيا»، أخت «ناتاشا» الوسطى، منحنية عليه.

قال ببطء:

ـ يا «سونيا»، ماذا تفعلين هنا؟

صرخت «سونيا»: لقد أفاق من غيبوبته (وفتحت الباب وصاحت: «ناتاشا، يا «ناتاشا»!»، ثم التفتت نحو راخمانينوف): يا سيريوجا يا عزيزي، وأين تريدني أن أكون؟

ركضت «ناتاشا» وتوقفت في شقّ الباب، لاهثة لا بسبب ركضها السريع بل بسبب السعادة أن ترى عيني راخمانينوف الذكيتين والصافيتين.

ـ يا ناتاشا، إن راخمانينوف متعجب من رؤيتي في منزلنا لا في المحكمة أو السجن.

كرَّر راخمانينوف: في منزلكم؟

ـ يا عزيزي، هل نسيت كل شيء؟

دوى صوت مارينا القوي:

ـ صباح الخير يا سيريوجا، الحمد لله على سلامتك!

ابتسم راخمانينوف ابتسامة خفيفة: ـ هذا ما يشبه حلم «راتمير». وكيف تراني قد وجدتُ نفسي هنا؟

قالت «سونيا»: كانت «ناتاشا» قد عجبت أنها لم تسمع منك أي خبر. فركضنا إلى غرفتك ولكنك لم تكن مستعجلاً لأن تعرفنا. وقلت عنّا إننا مخلوقات ضائعة بالرغم من أننا جذابات...

قاطعتها «ناتاشا»: يا سونيا، كفى!

سأل راخمانينوف بالنبرة نفسها:

ـ لا لا، قولا كل شيء، فذلك يهمني كثيراً.

قالت سونيا: لا شيء مهمًا يا سيريوجا، لقد كنّا «كرستوفر كولومب» تعساء عندما اكتشفنا فندقك «أميريكا».

ـ سونيا!...

ـ حسناً. قررنا أن نأخذك. لقد كنت رجلاً لطيفاً جداً... فبالرغم من أنك كنت في غيبوبة شبه تامّة، ارتديت ثيابك وحدك ونزلت السلم وأخذت مكاناً لك في العربة، وعندما وصل الدكتور «أوستروخوف»، سمحتَ لنفسك أن تودّع الحقيقة.

ـ يا إلهي، كأنكم تتكلمون عن شخص آخر. وكم من الوقت بقيتُ ملازماً فراشي؟

ـ ثلاثة أسابيع تقريباً.

ـ لا بد أني أضجرتكم كثيراً!

قالت «ناتاشا» بصوت قوي: كفى! حتى لو كان ذلك على سبيل المزاح...

قالت لها سونيا بنبرة ساخرة: ناتاشا! لماذا تصرخين في وجه رجل مريض؟

قال راخمانينوف بمرح: لم أعد مريضاً... اصرخي يا ناتاشا، يجب أن تصرخي في وجهي!

لاحظت سونيا: إن «أوستروخوف» طبيب ممتاز. لقد قال البارحة إنه كان ينتظر أزمة.

قال راخمانينوف لنفسه: إذن ما حصل البارحة كان أزمة... من منكما كانت معي البارحة؟

أجابت سونيا: في المساء، كانت ناتاشا، ثم مارينا وفي الفجر أنا التي جئتُ. لا أعلم متى حصل ذلك. لقد بدا لي أنني استفقت من غيبوبتي وأني شفيت ولم أكن وحيداً. شعرت أني بصحة جيدة كما لو كنت في غابة ووجهي داخل العشب الممتلىء بالندى... سعادةً كبيرة، ومع ذلك، يشعر المرء بأنه يودّ أن يبكي... (ونظر إلى الفتاتين نظرة تساؤل) لم تلاحظ إحداكما أي شيء؟ ألم أتكلم أو أحاول النهوض؟

رفعت «سونيا» كتفيها: لقد أننت وتحركت من وقت إلى آخر.

سأل راخمانينوف: إذاً، ماذا حصل؟

قالت مارينا: حلم يا سيريوجا... إننا نموت ونشفى أثناء الحلم. لقد شفيت، والحمد لله.

التفتت «ناتاشا» ومسحت دمعة.

* * *

كان راخمانينوف يقرأ في غرفته على ضوء قنديل سرير كان يرتدي صدرية صوف وسروالاً قطنياً. لقد تحسّنت صحته كثيراً، لكنه بقي نحيلاً جداً.

وضع راخمانينوف الكتاب فجأة، ونهض متجهاً نحو البيانو في تردُّد وبقي لحظة واقفاً يفكّر ثم رفع غطاء البيانو ببطء. وجلس على الكرسي وضغط على مدوس البيانو. أغمض عينيه وغرس إصبعه في مقام السلم الموسيقي الأول: «دو» وأشبع نفسه بهذا الصوت فترة طويلة وعيناه مغمضتان. ثم فتح عينيه واقترب أكثر من البيانو وأزاح إلى الوراء ذيل بذلته، كما يفعل دائمًا في حفلاته الموسيقية.

أخذ هذا العازف الشهير، هذا العازف الذي تتعدّى شهرته حدود روسيا، يعزف السلم الموسيقي بجدية فائقة، وكأن الموسيقى لم تمنحه من قبل مثل هذه المتعة.

انشقَّ الباب ودخلت ناتاشا بهدوء، حاملة غصناً من ورد الميموزا في يدها.

لم يلاحظ راخمانينوف ظهورها فوراً. لكنه عندما شاهدها، ارتبك إلى حد أنه أخذ يعزف مقطوعة «رقصة الكلب».

ـ مرحى يا سيريوجا! يمكن أن تبدأ دراسة موسيقى «زيرني».

ـ لا تضحكي. لقد ظهرت لي رؤية أني نُفيت من الموسيقى بسبب أخطائي كلها.

ـ بسبب أخطائك كلها، أنت تستحق أكثر من ذلك!

ـ ارحميني! فما هي الأخطاء التي ارتكبتُها؟ وتجاه من؟

ـ تجاه نفسك، خطيئة مميتة. أنظر ماذا فعلت بنفسك، أنت الموسيقار الكبير.

ـ صرخ راخمانينوف ضاحكاً: تابعي الحديث نفسه. كان

الموسيقار الكبير «روبنستاين» يقول: إن الفنان الخلاق يحتاج إلى ثلاثة أشياء: المديح، ثم المديح وأخيراً المديح.

ـ نحن ثلاث ممرِّضات نعتني بك. وسنمدحك ونمدحك ثم نمدحك حتى تقتنع بأنه ليس هناك ولن يكون أبداً شخص أفضل منك. لكني جئت لأعلن لك قراراً هاماً: سنأخذك معنا إلى منطقة «إيفانوفكا».

ـ لم يحن الوقت بعد... لم يحصل أن ذهبتم هناك في فترة مبكرة هكذا.

ـ لكن هذه المرة، سنفعل. فأنت تحتاج إلى هواء نقي وهدوء مطلق. وستتمتع بذلك كله في «إيفانوفكا». أنت تحب الأرض بل لقد كنت تحلم بأن تصبح مزارعاً.

ـ لم أقل لك ذلك في يوم من الأيام.

ـ قلت ذلك «لفيروتشكا» وقالت لي ذلك هي بدورها. لقد كنت حافظة سرها الحميمة ـ ابتسمت ناتاشا ـ صحيح أن الليلك لم يزهر بعد. لكن عندما يحين الوقت، ستشرب كوباً مليئاً بخمر الليلك.

بدأ صوت راخمانينوف فجأة أبحّ كأنه غير قادر على الكلام:

ـ سأذهب، لكن لدي شرطاً واحداً.

ـ إنني أقبل جميع شروطك مسبقاً.

ـ لا تستعجلي ـ أخذ يسعل ـ من الصعب أن أقول لك... لست أدري... يا لي من رجل أحمق!! كل هذه السنوات... كل هذه السنوات الشاقة، كان بالقرب مني صديق وفيّ. وكان هذا الصديق من الحساسية بحيث أني سمحت لنفسي أن أنساه. لكن لولا هذا الصديق، لكنت رجلاً هالكاً. لقد أدركت قوة الصداقة. لكن أغرب ما في الأمر أنني اكتشفت أن هذا الصديق كان امرأة، امرأة رائعة ـ يمكنني أن أستمر في الحياة إذا قبلت، يا ناتاشا، أن تكوني دائمًا معي. وباختصار، فإنني أطلب يدك.

ـ أمنحك يدي ـ ابتسمت ناتاشا، لكنه لمع في عينيها ضوء متشكك لو لم تقل ذلك بنفسك، لكنت أخذت يدك وذهبنا معاً إلى الكنيسة.

يا ثروتي، لقد أحببتك منذ أن كنتُ في الثانية عشرة من عمري. لقد دفعتُ ثمن انتظارك غالياً...

صرخ راخمانينوف: إذن فقد كنت أنتِ؟ ـ ثم لزم الصمت منزعجاً.

ـ لا أدري عن أي شيء تتكلم. لكن إذا أحببت ذلك، فأنا بالطبع تلك المرأة.

قال راخمانينوف: لقد نسينا أمراً واحداً. لن يكون من السهل أن نتزوج. فنحن أقرباء. ويجب أن نأخذ إذناً من الامبراطور.

لا تخترع عقبات غير مقنعة. فإذا كنت قد نظمتُ كل شيء معك، فسأتدبّر أمري مع الله والامبراطور.

عند المساء، في إحدى ضواحي موسكو، توقّفت قافلتان بالقرب من أبواب إحدى الثكنات. وقد نزل من القافلة الأولى راخمانينوف مرتدياً بذلة وناتاشا بحجابها العرائسي ودثارها الأسود و«سونيا». ومن العربة الثانية، نزل «زيلوتي» وعازف الكمان «براندوكوف» ومارينا.

أومأ أحد أطفال الكورس إلى القادمين وقادهم إلى الكنيسة عَبْر الثكنة التي كان ينام فيها الجنود على سرر متداخلة ومركّبة. وكانت بعض الكعوب الخشنة تتدلى. أما الضباط الذين لم يتمكنوا من النوم فقد تابعوا هذا المشهد الغريب، جالسين على سُررهم.

همس المزّاح «زيلوتي» لناتاشا: «لم يفت الأوان بعد لأن تعدلي».

ودخلوا إلى كنيسة صغيرة يسودها ظل نصفي، وكان كل شيء قد جُهِّزَ فيها للاحتفال. كان الخوري العجوز المذعور ـ إذ أنه تم الزواج دونما انتظار الترخيص الرسمي ـ على عجلة من إنهاء هذا الزواج غير المشروع. وقد ألبس راخمانينوف بعناية وجدّية مؤثرة، خاتم الزواج في إصبع «ناتاشا».

بعد رحلة عرس قصيرة، عادت «ناتاشا» بـ«راخمانينوف» إلى منطقة «إيفانوفكا». وقد استقبلهما جميع الخدم، ومن بينهم الوقح والشجاع «إيفان» بشعره الجعد وعينيه السوداوين إلى حدّ أنه امتزج البؤبؤ بالقزحيَّة. ولم يستقبل «إيفان» أسياده فقط ـ اكتفى بهزة رأس مهملة وسفيهة باتجاههم ـ بل استقبل «مارينا» وحمل على الفور صندوقها الصغير.

قالت «مارينا» وقد انفعلت جداً بجمال «إيفان» الخطر: صباح الخير، هل أصبحت فخوراً جداً أم أنك نسيت الكلام؟

أجاب «إيفان»: لم أتعلم الفرنسية. أما أنت، فيبدو أنك لا تصادقين سوى السادة.

ـ أصبحت أبله تماماً. لقد ذهبنا إلى «سويسرا». ولا تكن بذيئاً، يا عزيزي، إذا أردت أن تتفادى صفعة على وجهك.

أدفأت هذه الكلمات قلب «إيفان» الذي عفا حتى عن كلمة «يا عزيزي» المهينة.

دخل «إيفان» و«مارينا» إلى المنزل من باب الخدم وصعدا إلى الغرفة النيِّرة. ونزعت قبعتها فانتشر شعرها الكستنائي على

كتفيها. ودفعت قوة فائقة «إيفان» نحوها، فأمسك بكتفيها وهزّها.

تمتم كأنه تائه: مارينا!... مارينا...

كانت «مارينا» قد ألفت تهذيب الأسياد، ولكن شغف «إيفان» البسيط والطبيعي وجد طريقاً إلى قلبها، فغرزت أصابعها في خصل شعر «إيفان».

ــ أيها المتوحش! انتظر! إنك ستدعك فستاني...

* * *

كان راخمانينوف يجتاز الحقول... وكان قطيع يرعى على سفح تلّة وراعٍ ينفخ في الناي. وأبطأ راخمانينوف خطاه يستمع، ثم عاود المشي. وارتقى حظيرة صغيرة ومرَّ بالقرب من روضة أزهار تفتح فيها القرنفل والسلبوت والبنفسج، ثم صعد إلى الشرفة التي كان يقوم فيها البيانو القديم «بشستين» وأخذ يعزف مقطوعة «الليلك». ولم يلاحظ «ناتاشا» الواقفة التي اقتربت ووقفت في شق الباب.

عندما انتهى العزف، سألت: ما اسم هذه المقطوعة؟

ــ إنها مقطوعة جديدة. لقد أتممت تأليفها هنا. فَلْنُغَنِّها معاً.

ــ لا أعرف كلماتها.

ــ بل تعرفينها تماماً. إنها معزوفة «الليلك» «لبيكيتوفا».

وعندما انتهيا من الغناء، قالت «ناتاشا» بصدق:

ــ إنها أجمل معزوفاتك!

ــ لقد استوعبت تماماً مبدأ «روبنستاين» المتعلق بالمديح.

ــ أقول لك ذلك بكل جدية. بالصدق نفسه الذي كتبت به هذه المعزوفة وأنت تفكّر بفيروتشكا.

ــ ماذا؟

ــ طبعاً، فكرت بها من جديد....

قال راخمانينوف بصدق: لم أكن أعرف ذلك...

ــ أصدقك. إن الليلك هو الذي جمعكما.

ــ من أين عرفت ذلك؟ إنني لم أتفوّه به لأحد.

ــ أعرف كل شيء. لم تكن «فيروتشكا» تخفي سراً واحداً عني. لقد أخبرتني كل شيء. وبعد ذلك، كنت أبكي على وسادتي. ومنذ وقت قصير، تذكرت مرة ثانية «خمر الليلك» عندما كنت أرتدي ثيابي عندها لأذهب إلى حفلة الزواج. إنها هي التي ألبستني فستان الزفاف، يا سيريوجا. إنها لطيفة وطيبة جداً، وهي لم تَنْسَك.

ــ لماذا تقولين لي ذلك؟

ــ يجب أن لا يكون هناك أي بلبلة، أي خفاء بيننا. عندئذٍ، نستمر معاً في الحياة.

ــ لكن ليس ثمة شيء من هذا القبيل، ليحفظك الله! بالقرب منك، لا يمكن للمرء أن يكون مبلبلاً، أو متردداً، أو كئيباً أو ضعيفاً. أنت مستقيمة جداً وقوية. بالقرب منك، لا أخشى شيئاً. بل إنني مبتهج دائماً بك يا ناتاشا.

قالت: هذا ما أردتُ أن أسمعه. وكل ما في داخلك، يمكن أن يبقى لك وحدك. يجب أن لا تتنازل عن أي شيء. ابتهج، ولو قليلاً، لرؤيتي يا سيريوجا. أما النسبة للحب، فلدي ما يكفي لاثنين.

* * *

كان مطر رقيق، ينيره شعاع الشمس، يقرع أوراق الأشجار والأعشاب والبلسكاء. وكان إيفان ومارينا قد توقّيا من المطر تحت شجرة صفصاف محاطة باللبلاب.

قال «إيفان»: إذن، أنت ذاهبة؟ (ومن الواضح أنها لم تكن المرة الأولى التي يطرح فيها على مارينا هذا السؤال).

ــ نعم، سنذهب يا «إيفان». إن راخمانينوف سيقوم بجولة موسيقية.

سأل «إيفان» بصوت سامّ: وأنت أيضاً ستقومين بجولة؟ برفقة الكاتب أو أحد المدعوين؟

ــ أيها الأحمق! لو كان لي عشيق، لما اهتممت بك. فماذا تحسن باستثناء سرد الكلمات البذيئة؟

ــ إذن لماذا تهتمين بي؟

ــ فكّر قليلاً. ربما تفهم إذا استعملت دماغك.

ــ إذن إبقي هنا. كفاك عيشاً لخدمة الآخرين. إن الأيام تمضي.

قالت مارينا بصوت نائح: لا أستطيع يا إيفان. أنت على حق، لكني لا أستطيع. لستُ أنا المسؤولة عن هذا الخطأ، بل هو الدم الذي يسري في عروقي. إنني أفكّر بعقلي، لكن قلبي يمنعني من التصرُّف. كيف سيدبرون أمورهم أثناء غيابي؟ إنني لا أستطيع أن أدعهم وحدهم، مهما قلت أنت. إنهم عديمو المهارة...

ــ النعجة التي ترثي للذئاب! وهم الذي يعيشون على حساب الآخرين، لا يحكون حتى برؤوسهم! ــ احتدَّ إيفان ــ لا بأس! سيدفعون ثمن ذلك. لقد ملَّ الشعب منهم. فلن ننتظر طويلاً. ولقد وصلت بعض الأخبار إلى «إيفانوفكا»: بدأ الفلاحون يثورون...

ـ هل أضعت رشدك؟ ما الذي يدور في رأسك؟ بل قد صررت على أسنانك. كم أنت شرير يا إيفان!

ـ هناك سبب لشراستي هذه. فأنت بالقرب من الأسياد، تعيشين في نعيم. لكن عيشي قليلاً في القرية!

ـ إذاك لماذا تدعوني؟ وانفجرت مارينا ضاحكة ـ إنني أحب أن أعيش في النعيم.

ـ لقد أفسدوك بالتدليل... إبصقي عليهم وعلى صدقاتهم! ألا يستطيع المرء العيش دون هذه الصدقات؟ من أجلك، يمكنني أن أنزع القمر من مكانه. إن زمننا آتٍ. ألا تشعرين به أنت؟ سنأخذ الأرض ونكون أسياد أنفسنا. كفاهم، لقد امتصوا دمنا بما فيه الكفاية.

ـ لا يا إيفان. قد يصح القول بأن المهم أن نحب بعضنا، ولا أهمية للباقي، لكني لا أقوى على فراقهم.

ـ إذن فأنت تقذفين بحياتك، حياتك الوحيدة، إلى القمامة؟

غضبت مارينا ـ دع القمامة لك يا إيفان! أما أنا، فأعيش بالقرب من الجمال. وراخمانينوف، إذا كان يهمك الأمر، هو عبقري كبير.

لطم إيفان، من شدّة الغضب، شجرة صغيرة فانكسرت...

* * *

خرج راخمانينوف وزوجته باكراً من المنزل. وكان الخدم ما يزالون منهمكين بالحقائب يضعونها في مؤخرة العربة.

اقترح راخمانينوف على زوجته: لنتمشَّ قليلاً.

اجتازا الحديقة وخرجا من الباب.

قال راخمانينوف: كم أحبّ الطبيعة هنا! إنني لا أشعر برغبة للذهاب.

ـ غريب! أنت الذي استعجلت الرحيل.

ـ يجب أن أعمل. لقد أضعتُ الكثير من الوقت. وقد قررت، لو تعلمين أن أصبح ثرياً وعبقرياً.

ضحكت ناتاشا: أوه! يا لها من مشاريع عظيمة!

ـ إن والدك لا يحلم إلا بأن يتخلص من «إيفانوفكا». أما أنا، فأريد أن أعود إلى هنا لا كمدعوّ بل كسيد.

ـ وما ينفعك هذا العبء؟ إن أملاك «إيفانوفكا» مثقلة بالديون.

ـ أعرف كل شيء. لكن عندما أحقق النجاح، وسأحققه... فستنتهي الهزائم...

ـ والموسيقار التائه هو الذي يقول هذا الكلام.

ـ لقد تهت أكثر مما ينبغي، والآن، أريد أن أتعلّق بالأرض. إنني أحب الأرض. أحبها منذ طفولتي. أحب أن أنبشها وأن أشمها، وأحب كل ما ينبت عليها. ليس إلا هذا ما هو حقيقي. وكل شيء سواه ليس إلا سراباً.

ـ كنتُ أجهل أن أحلامك مادية إلى هذا الحد.

ـ القضية قضية أخرى. عندما كنت صغيراً، بقيت دون منزل لي. وتهتُ أكثر مما ينبغي... عند أقربائي وأستاذي «سفيريف» وبيتكم وعائلة «سكالون» و«كروزير» ومساكن أصدقائي وغرف أوتيل أميريكا». لم يكن لي في يوم واحد زاويتي الخاصة. أريد أن أنتقم للمتسكع وللتلميذ البائس. أريد أن يكون لأولادنا منزل حقيقي على هذه الأرض الروسية الصلبة. كل شيء يتهاوى وتختفي الممالك والأفكار والتقاليد. لكن الأرض تبقى ضمن حدودها وينتصب المنزل فوقها. وهذا كل ما هو راسخ في عالمنا المتحرك.

ـ هذا ما أريده أنا يا سيريوجا. شريطة ألا تفشل.

ـ إنني أملك قوة تكفي لعشرة أشخاص. ألا ترين أنني أصبحت رجلاً آخر؟

سمعا صوت مارينا: يمكننا أن نذهب الآن.

وكما في الماضي، ابتعدت عربتان عن أملاك «إيفانوفكا».

وكما في الماضي، شقَّ «إيفان» طريقاً لنفسه ليلحق بالذاهبين، مختبئاً وراء الأشجار والأدغال. لكنه هذه المرة لم يكن بعد صبياً بليداً، بل كان فلاحاً قوياً وخطيراً.

* * *

كان راخمانينوف يعزف مقطوعته «الكنسرتو للبيانو» في موسكو وداخل قاعة الاحتفال التي تدعى «جمعية النبلاء». وكان يقود الأوركسترا «زيلوتي» ويعزف المؤلف على البيانو. اقتربت نهاية الحفلة.

هلَّل الحاضرون وجاء البواب بباقة فخمة من الليلك الأبيض وقد بدا الندى عليها.

في «بتسبورغ». في قاعة احتفال. تعزف مقطوعة «الربيع». ومن جديد أعطى أحدهم أو إحداهن للبوَّاب باقة من الليلك الأبيض لينقلها إلى راخمانينوف. في مدينة «خاركوف». في قاعة الاحتفال كرَّر راخمانينوف معزوفة له. تصفيق وتهليل. وينحني طويلاً وهزيلاً في بذلته من الطراز القديم. ثم ينسحب إلى مقصورته حيث كانت تنتظره باقة ضخمة من الليلك الأبيض.

سأل الخادم: من أرسلها؟

أجاب الخادم منحنياً: لا أعلم.

تدخل ناتاشا وترفع ذراعيها:

ـ ليلك أبيض! بالطبع، إنه من امرأة، من حورية الليلك. لن يلحق بك أي معجب، حتى المعجب أكثر تعصباً لك، من مدينة إلى أخرى.

أضاف راخمانينوف: ولن يختبىء هكذا.

ـ لو كنت ميالة إلى التصوّف لقررت أن روح «فيروتشكا» هي التي تعطيك من أخبارها من هناك.

همس راخمانينوف: مسكينة فيروتشكا!

وغمس وجهه في الليلك.

أنهى إيفان الزجاجة الثانية في مطبخ أملاك «إيفانوفكا». كان برفقة البستاني الذي شاخ كثيراً، والحارس الكثيف الشعر والحامل بندقيته وفلاح كان ماراً من هناك.

قال الفلاح: في منطقة «ليبوفكا»، أُحرق منزل الأسياد.

قال البستاني ماضغاً خبزه: ومن أحرقه؟

ـ لم يعرف الحارق. لقد أخرجوا الفلاحين جميعهم إلى الشارع، لكن ما من أحد منهم اعترف.

قال «إيفان»: إذا توحّدنا جميعنا وإذا تصرّفنا بذكاء، يمكننا أن نجنّد المنطقة بأكملها.

قال البستاني مذعوراً: إخرس! بإمكانك أن تخدع بالكلام، لكن لا تبالغ!

بصق «إيفان»: أيتها الروح المستسلمة!

بصق البستاني بدوره: تستحق أن تشنق!

ـ ولماذا يجب أن نسيء إلى أسيادنا؟ كانوا دائمًا طيبين مع الفلاحين... أسياد عادلون.

ـ كلام سخيف! ـ نهض «إيفان» ومطّ كتفيه ـ كم أملّ معكم! أين ذهب الرجال الحقيقيون؟ هل اختفوا جميعاً؟ ليس إلا الغائط يعوم على السطح.

نصحه الجدّ قائلاً: فتِّش عنهم في «ليبوفكا»، فنحن لسنا من جماعتك.

أشرق وجه «إيفان»: يوجد رجال حقيقيون وسأجدهم...

صفق الباب وخرج من المنزل إلى الظلام، مدمدماً بأغنية اخترعها لتوّه:

من هو العنكبوت
الذي شبكك في خيوطه؟
مارينا يا مارينتي يا مارينتي
أنا مجنون بك، آه يا نجمتي.

* * *

كانت عشر سنوات قد مضت وتغيرت أملاك «إيفانوفكا» كثيراً. كان أحد أوائل جرَّارات روسيا يدوي ويُرسل غيمًا من الدخان الأزرق وهو يجتاز الحقول قاطراً حصَّادة. وكان يقود هذا الجرَّار رجل كلّف خصيصاً بالقيام بهذه المهمة كان يرتدي ملابس عمل وقبعة جلد ونظارات لوقاية عينيه وقفازات. أما الحصَّادة، فيهتم بها فلاّح صغير يرتدي سروالاً منتفخاً وقميصاً ممزقاً. وكان رأسه الأشقر مغطى بطبقة من الغبار. أما «إيفان»، فقد أضاع كثيراً من جماله في تلك الأعوام. وأخذت مكان خصل شعره الشقراء التي تكاد ترنّ رنيناً، قطعة من القماش الأكمد.

اقتربت عربة يقودها بمهارة سيريوجا راخمانينوف من الجرَّارة. لقد تغير كثيراً هو الآخر، إذ أنه اكتسب هذا الطابع «الراخمانينوفي» الذي سيحتفظ به حتى النهاية، باستثناء اللمسة الفظيعة التي سيحملها مرضه المميت. تطاول وجهه الحزين ونتأت التجاعيد التي تصل أنفه بأطراف شفتيه. لم يكن راخمانينوف ينشط ويشب إلا عندما يتحدث إلى أصدقائه المقربين، ومن بينهم المطرب شاليابين الجالس الآن بالقرب منه، وكان صوت راخمانينوف قد أصبح أكثر بهامة وحناناً وحركته أبطأ وأكثر ركازة. فقد تعلم راخمانينوف المؤلف والعازف والقائد الموسيقي أن يدخر جهوده. كانت تلك حركة دفاع ذاتي عاقلة، بالرغم من أنها غير واعية.

تعدَّت العربة الحصَّادين وقال شاليابين: إنك تدهشني حقاً! يعتقد المرء أنه في أميريكا ـ وصرخ بصوت عال، بالرغم من أن هذه المسألة لم تكن تهمه، فليعاونك الله!

فانتفض سائق الجرارة ورفع قبعته. وحتى الجرارة عطست وبصقت دخاناً أزرقَ. ولم يلتفت «إيفان».

سأل شاليابين: ومن هو هذا الفحام[1]؟

ـ لقد حررت، فقد أخرجه والد زوجتي من السجن.

ـ هل قتل أحداً؟

ـ لا، لم يصل إلى حد الجريمة. لكنه كان من ثوار سنة ١٩٠٥.

ـ آه!... لم أكن أعلم أن «ساتين» يتعاطف مع الثوار.

(١) فحّام: نصير الفحامية، وهي جمعية سياسية ظهرت في إيطاليا في القرن التاسع عشر وسعت لتوحيد البلاد. وكانت أصلاً تلتئم في مستودعات الفحّامين (المنهل).

ـ كلا، تلك مسألة رومانتيكية إنه خطيب مارينا، مربية «ناتاشا». لقد رأيتها: فتاة طويلة كستنائية الشعر. إن «ناتاشا» تحب هذه الفتاة الرائعة حباً شديداً، وقد ذهب والدها إلى الوالي.

ـ وماذا أعجبها عند هذا الشاذ؟

ـ إسألها ذلك بنفسك.

كان شاليابين قد ملَّ من مراقبة الحقول والبساتين والقطيع، وقد سأل راخمانينوف: ولـمَ لا نؤجل زيارة المجبنة ومربط الخيل إلى مرة أخرى؟ إن لدي رغبة شديدة في أكل «الشتشي».

ـ لست أملك لا مجبنة ولا مربط خيل...

ولست تملك أي حس للفكاهة... فلنَعُدْ! ما هي سرعة هذه العربة؟

أخذ راخمانينوف يتكلم بجدية فائقة: يبدو لي أن حارق العربة ليس على ما يرام... وأن شمعات السيارة... لقد استدعيت ميكانيكياً... صرخ شاليابين: موسيقى! أريد بعض الموسيقى وأكلة «شتشي»! لا أستطيع أن أسمع عن الجرارات وحارق العربة والحصاد وحلب البقر والطيور. اصمت ودُسْ على... الحارق! (وانفجر ضاحكاً).

حاول «راخمانينوف» أن يبتسم، بالرغم من شعوره بأنه جرح فهو لم يكن يحب أن يهزأ الناس منه ومن اختراعاته وهو جدّيّ تمام الجدية بالنسبة لمشروعه. وقد أسرع مسروراً بعربته ومهارته في قيادتها. واستمع إلى ثرثرة شاليابين.

ـ أفكر الآن بأن هذا الرجل كان في الماضي ملحناً وعازف بيانو وحتى أنه كان يقود أوركسترا في حديقة «أكواريوم»... وما حلّ به اليوم؟ يقود جرارته المقدّسة!

ـ اضحك، اضحك دائمًا... ولكن يوم يفلس مصرفك، فستضحك ضحكة صفراء. أما أنا، فكل ما أملك موجود هنا وسيبقى دائمًا هنا...

شحب وجه شاليابين... قف! هل سمعت إشاعات حقيقية؟ إن مصرف موسكو ولندن...

ـ إهدأ! حتى الآن، ليس من شيء يهددك، حتى الحرب القادمة أو الأزمة الاقتصادية القادمة.

ـ لقد أفسدت عليَّ مزاجي الطيِّب. ربما كان من الأفضل أن أشتري قطعة أرض؟

أخفى راخمانينوف ابتسامة راضية.

ها هما يدخلان ملك راخمانينوف، وقد اعتنى به هذا الأخير كل الاعتناء فرُمِّمَ المنزل وجُدِّدَت سقوف الأجنحة وزُرعت الأرض بالورود...

* * *

كان الغداء طويلاً والمأكولات وافرة وروسية أصيلة. وذلك لإرضاء شاليابين، الذي يهوى المآكل الوطنية. إلى جانب عائلة راخمانينوف وشاليابين وزوجته النحيلة «يولا»، حضرت عائلة «كروزر» الموسيقية والأستاذ «موروزوف» وأربعة من أصدقاء راخمانينوف المقربين.

قال شاليابين: إن جميع أطباقكم ممتازة، غير أن أكلة «الشيتشي» هذه عظيمة إلى حد أن «مانيلوف» نفسه لم يذق مثلها. أقول لكم ذلك من أعماق نفسي.

قالت «ناتاشا» مبتسمة: أنت على حق. إن مارينا هي التي حضرت هذه الأكلة. بالرغم من أنها مدبرة البيت هنا، فهي لا تسمح لأحد بأن يحضر «الشتشي».

لاحظت «سوفيا»، شقيقة «ناتاشا»، بقليل من الحسد: ذلك لأن راخمانينوف يحب «الشيتشي»: ولو طلب راخمانينوف لحم التماسيح، لأصبح هذا الطبق على الفور اختصاص المنزل.

صاح شاليابين: إنها فتاة عبقرية! وأنا أسمع الجميع يتكلم عنها طيلة النهار.

ـ إنها الشخص المفضَّل هنا. للأسف، لم تعد فتاة، بل تعدَّت عمر الفتاة منذ زمن طويل. لكنها لم تنجح في تدبير حياتها. إنها لا تريد أن تتركنا.

لاحظ «موروزوف»: وما أبرع غناءها!

قالت ناتاشا: إن الشعب في هذه المنطقة يغني جيداً.

سأل راخمانينوف «كروزر» الصامت: هل استمعت أغنية «القدر»، كما ينشدها شاليابين؟

ـ للأسف لا!

وعد شاليابين: سوف أغنيها لكم. وسأنشدها بطريقة أفضل مما قال «تولستوي»، بإذن الله.

ـ وماذا قال تولستوي؟

ـ فشل! فشل ذريع. لقد كان مزاج ليون نيكولايفيتش عكراً فقال إن الأغنية العاطفية ليست سوى قذارة، وإن الموسيقى الحديثة كلها هي الأخرى، قذارة. ثم تذكّر «بتهوفن» فقال إن هذا الآخر لا قيمة له.

صاح «كروزر» غاضباً: لا شك، إن شيئاً ما قد أصاب ليون نيكولايفيتش ذلك اليوم.

أجاب راخمانينوف بصوت خافت: نعم. لقد كان «تشيكوف» في مثل ذلك الحال، يقول محلِّلاً: عسرُ هضم!

اقترح شاليابين: هيا نغني...

انتقل المدعوون إلى غرفة الجلوس التي كان فيها البيانو ذو الذنَب.

* * *

أُخذت غرفة الخدم بالانفعال: فهناك أيضاً سُمع صوت شاليابين:

الفلاَّح هو عشيقها
إنهما يتنزهان يداً بيد
ومعاً يحصدان الحقول
ثم معاً يموتان جوعاً.

ركض جميع الخدم إلى قاعة الجلوس، فجلس البعض تحت النوافذ والبعض الآخر الأكثر جرأة قرب المدخل.

طوال النهار يرويه المطر
وفي المساء، يرتعش برداً
وإذ يقبل الليل،
يدقّ القدر الكئيب:
«توك... توك... توك...».

لم يمنع خيال العبقري العملاق الجمهور من التصفيق للأغنية العاطفية. وقال شاليابين وقد عاوده مزاجه المرح، لعازف البيانو المرافق:

ــ إعزف أغنيتي المفضلة، أغنية بولونسكي: «لقد مضى وقت طويل، يا صديقي...».

وهذا الرجل الراضي والمسرور بالحياة، غنى بألم يمزِّق القلوب، أغنية راخمانينوف الأكثر حزناً وعمقاً. وكانت من شدة التأثير على الحضور أنه ساد صمتُ الأموات لبضع دقائق، ثم ارتفع صوت نسائي:

«رباه! أشعر كما لو قمنا بزيارة إلى الجنة!».

التفت شاليابين وألقى نظرة حول الحضور وقال بصوت واثق، متوجهاً لامرأة طويلة القامة جميلة، كانت عيناها الرماديتان ملونتين بلون أزرق:

ــ يا مارينا! تعالي.

لم تستغرب مارينا ذلك: وبهدوء وكبرياء، اقتربت بخطوات خفيفة لكنها واثقة وتوقَّفت بالقرب من شاليابين، حابسة ابتسامتها.

تنهد «فيودور شاليابين»: يوجد نساء جميلات في قرانا الروسية. فلنغنِّ معاً يا مارينا.

ــ معك، يا فيودور شاليابين؟

قالت ناتاشا: إن مارينا تغني الأغاني المحلية والشعبية. والحقيقة أن البعض منها إباحي.

ــ لكني أعتقد أننا جميعاً هنا راشدون.

ــ باستثناء الابنتين الصغيرتين.

أكَّدت «إيرينا» ابنة راخمانينوف الكبرى: أنا أعرف هذه الأغنيات، وأختي الصغيرة «تانيا» بلهاء ولن تفهم...

قالت الأم: شكراً للمعلومات. أسرعي إلى سريرك.

احمرَّ خدَّا مارينا وقالت: أخجل أن أغني حماقات كهذه، يا شاليابين.

ــ إن هذه الحماقات بالنسبة للراشدين كما هي الحكايات السحرية بالنسبة للأطفال...

لم تكن «مارينا» بحاجة لمزيد من الإلحاح، فغنَّت:

يا مولاي، لك كل ولائي
لا تلمس خطيبتي
لا تتصرف كالوحش
ولا تَدْعُها إلى المخبأ!

صرخ شاليابين: هوب لاه!

ليست الريح الخبيثة!
هي التي تهبُّ في إيقاع
لقد أوقعوا صديقتي
فتأرجحت خصل شعرها

قال شاليابين: هذه الأغنية غنية بالصور. فمن أين أتيتِ بها؟

يوجد فلاح في منزلنا يدعى «إيفان». وهو في كل مساء، يأتي بأغانٍ جديدة.

ــ أحضروه إلى هنا!

توقفت مارينا عن الضحك: إنه لن يقبل.

ــ ولماذا لن يقبل؟ قولي له: شاليابين يستدعيك.

ــ لن يأتي.

ــ إنه لمتعجرف!

تدخَّل راخمانينوف: دعه وشأنه يا شاليابين. سبق وقلتُ لك ذلك...

* * *

وفي المطبخ أيضاً، كان الجميع يتلهون: كان «إيفان» يعزف على قيثارته الروسية وينشد أغنية لم يسمعها قط في الريف:

ومن أجل تلك البيضتين الجملتين ــ
لمتسا ــ دريتسا ــ هوب ــ تسا ــ تسا!

دخلت «مارينا» مرحة محمرة الوجه، لكنها قطّبت عندما سمعت أغنية «إيفان»:

ــ من أين جئت بهذه الأغنية البذيئة؟ هل التقطتها من السجن؟

ــ وما معنى ذلك؟ إن هناك أيضاً رجالاً.

أعلنت «مارينا» بفخر: أما أنا، فقد غنّيتُ مع شاليابين.

هزىء «إيفان»: ماذا فعلت معه؟

يا لك من أحمق؟

نهض «إيفان» وقد استشاط غضبه، إلى حد أنه حطم قيثارته على الأرض بكل قواه وحولها إلى شظايا من خشب.

ــ مجنون تماماً... كلما شاخ ازداد حماقة!

أخذ إيفان بيدها وشدّها إلى الخارج: لنخرج!

ــ دعني وشأني، إنك تؤلمني...

أفلت إيفان يدها. وذهبا إلى ظل كومة شعير صغيرة وكانت قد حصدت من حقل بالقرب من المنزل.

سأل إيفان: هل تظلين تقلقينني لمدة طويلة؟

ــ وأنت؟

قال إيفان بقساوة ومرارة: لقد أصبحت عانساً! عجوزاً فانية! إن جميع الفتيات هنا ــ القبيحات والعوراوات والمجنونات ــ كلهن تزوجن أما أنت، فقد فسد أمرُك... هل تفهيمن إنه لا يمكن للمرء أن يعيش حياة الآخرين؟ من يكونون بالنسبة لك؟ إنهم كالخفافيش، يمتصون دمك وسيلقون بك آخر الأمر في القمامة.

ــ ألا تخجل من شتم أشخاص طيبين؟ لست إلاّ عقوقاً قذراً!

ــ ولماذا يجب عليّ أن أشكرهم؟

ــ ومن الذي أخرجك من السجن؟ لولا مساعدتهم، لكنت ما زلت تجر الحديد في أقدامك.

ــ كفى: «لولا مساعدتهم»، و«بفضلهم»...! إن ناتاشا طلبت من والدها أن يقابل الوالي.

ــ ليس من السهل إقناع العجوز «ساتين» بالقيام بذلك. لم يكن باستطاعته أن يرفض طلباً لزوج ابنته، إذ أن هذا الآخر دفع جميع ديون مُلك «إيفانوفكا» المكدَّسة.

ــ لا يهمني الأمر!... أما بالنسبة لذلك العازف... فلن أسامحه أبداً.

ــ لماذا لن تسامحه؟

ــ تعلمين السبب.

ــ قالت مارينا متأملة:

ــ ولماذ لا يمكنك أن تحبّلني أنت؟ إن جسمي سليم.

وإذن فإن كل شيء يتقرر تلقائياً.

مزح «إيفان» قائلاً بحزن: ربما لا أتناسل لأني لست حراً. إسمعي، كفى، سآخذك معي... كفاك تنقلاً، فلست فتاة صغيرة بعد.

ــ حسناً، إن أمكنهم التخلي عني، فكما تشاء.

ــ إن أمكنهم أو لم يمكنهم، فسأكلمهم غداً. سأتكلم مع «ناتاشا».

ــ افعل ذلك بتهذيب يا «إيفان».

ــ ولماذا لن أكون مهذباً؟ لكن العازف، إذا تدخّل، عندئذٍ... اعتذر...

ــ لن يتدخّل.

قال «إيفان» بصوت هازىء: هل أنت متأكدة؟ إنه يتدخل في كل شيء هنا. هو ينبش القمح والمراعي ويندسّ في الاصطبل والطاحونة. كم إنه تُرَّهيّ! ويتصرف كما لو أنه يفهم كل شيء!

ــ إذن لا تذهب. إذا كنت لا تستطيع أن تكلمهم بطريقة لائقة، فستجلب العار لنفسك ولي في آن واحد.

ــ حسناً، سأتصرَّف بتهذيب. من أجلك أشقّ بطني، وأذلُّ نفسي، وليس عليك إلا أن تقولي كلمة واحدة...

ــ كم أنت عنيد يا «إيفان»! لماذا أنا مغرمة بك إلى هذا الحدّ؟

ــ لا تخافي. سنحصل على كل شيء، كما في كتاب جميل...

في اليوم التالي، ذهب «إيفان» ليطلب يد «مارينا». وقد قرَّر أن يطيعها وأن يتصرف بتهذيب. وارتدى قميصاً أبيض ذا قبة مرفوعة وزناراً حريرياً وسروالاً قطنياً وحذاءً ملمعاً بالقطران. وسرَّح بعناية شعره الذي أكلت الحياة والآلام الكثير منه، وكان مشط خشبي يتدلى من زناره.

اقترب «إيفان» من باب الخدم وقد بدا واعياً أناقته، مصمماً تماماً ومتفائلاً. وإذ بالعربة تخرج مسرعة من وراء زاوية المنزل. وكان يقودها «سائق» مبتدىء، شاليابين، الذي أتيح له، منذ

الصباح، أن يتذوَّق شراباً حُضِّر في المنزل. ومن غير قصد ودون أن يلاحظ «إيفان»، غطست عربة «شاليابين» في بركة عميقة لم تكن تجف أبداً، فرشَّت على الراجل التعِس من رأسه حتى رجليه، الوحل المقزز.

ولم يلاحظ الجالسون في العربة شيئاً: لقد أوسخت اللطخات زجاج السيارة واختفت العربة وهي ترتج...

نظر «إيفان» إلى ملابسه الملوثة ببطء ومسح وجهه بكم قميصه وكانت عيناه طافحتين بكراهية ملتهمة إلى حد أنه بدا هادئاً.

* * *

في أوائل خريف عام ١٩١٧، كان راخمانينوف عائداً بعربته إلى «إيفانوفكا». وكانت تنتصب وعلى جانبي الطريق، سنابل قمح لم تحصد وحقول بطاطا وحنطة سوداء وذرة بيضاء مخنوقة بالأعشاب الرديئة. وكانت ترى آثار مستودع محروق. وكانت ترتفع، مكان بيدرٍ مغطى عواميد معزولة. أما الباقي، فكان قد دُمِّر.

أوقف راخمانينوف العربة على حافة الطريق، كانت ترقد الجرارة التالفة وقد ارتفعت حدائدها الأربع في الهواء، وكأنها جُعْلٌ منقلب على ظهره.

توقفت العربة بالقرب من الملك. كان يظهر في كل مكان أثر التدمير. وكانت فلاحات وفلاحون يتزاحمون بالقرب من المنزل ويخرجون من الأبواب المفتوحة أواني ومقاعد وسجاداً ملفوفاً وأدوات منزلية على اختلافها. ولكن لم يكن هذا ما أقلق راخمانينوف. فقد كانت الأبواب الواسعة في شرفة الطابق الأول مفتوحة، وفجأة ظهر منها شيء كبير وأسود برَّاق. وتقدَّمت هذه الكتلة السوداء وتدحرجت إلى الخارج وتحطمت دفعة واحدة على الأرض. وعندما ضرب هذا الشيء الأرض وزمجرت أوتاره العديدة الممزقة، أدرك راخمانينوف أن ذلك كان بيانو غرفته من ماركة «ستنويي».

اتجه راخمانينوف نحو البيت، جاراً رجله كأنه عجوز عاش أكثر مما ينبغي. ولم يلاحظه الفلاحون إلا عندما اقترب منهم فتحجروا مكانهم. لم يكونوا يحقدون على راخمانينوف شخصياً. وإذا كان يدعونه، أثناء غيابه، بلقب «السيد» أو «المالك»، فإنهم يعتبرونه، عندما يصادقونه، رجلاً عادياً، ولم يكن معادياً لهم على الإطلاق.

قال راخمانينوف بشرود: لا يهم، تابعوا.

وتوقف فوق الألواح الخشبية السوداء واللامعة، التي كانت ولولتها المحتضرة ما تزال تدوي في أذنيه.

نظر إلى أحشاء البيانو المبقور وإلى أوتاره المرتعشة وإلى ملامسه المبعثرة كالأسنان المكسورة حوله. وفهم أنه لن ينسى هذه اللحظة أبداً.

وفي إثر البيانو، قفز من النافذة، قفزة رشيقة، جندي بلا علامات مميزة، وكان يُرى على سترته البالية آثار كتفيتين وعلى صدره آثار صليب القديس «جورج». ولم يمنع شعر الجندي الفاتح اللون الذي لم ينم بعد ووجهه الأسمر الذي يبدو أسود، لم يمنع ذلك راخمانينوف من أن يتعرف فيه «إيفان» على الفور.

قال إيفان هازئاً: أخيراً تشرَّفنا بزيارتك. أهلاً بك ولك كل احترامنا.

سأل راخمانينوف بصوته الخافت: ماذا يحصل هنا؟ في الحقيقة، ليس هناك من عمل خير إلا وينال جزاءه.

قال «إيفان» بصوت منهمك: اسمع يا سيد، الأفضل لك أن تخرج.

سأل راخمانينوف بصوت متعب: لماذا تكرهني؟

ــ لأنك لص يا سيد.

ــ لم أسرق شيئاً، وأنت تعلم ذلك أفضل من الآخرين.

قال إيفان بغضب متزايد: أتكلم عن سرقة من نوع آخر. لقد سرقتني يا سيد. سرقتني بطريقة شنيعة.

قال راخمانيوف على مضض: لقد أنقذتك من السجن.

قال «إيفان» ساخطاً: وأنا لم أطلب منك ذلك... بما كنت أرغب البقاء في السجن؟ كنتَ تعتقد أنك تكفِّر عن خطاياك! إن هذا لن يتم! إنك لم تستحق شيئاً من جهتي. وأنت عدوِّي طوال الحياة. ولتأتِ مارينا إلى هنا، فوراً! هل فهمت؟

ــ لن تقرر ذلك أنت. إنها ستتصرف كما تشاء.

ــ أنت تكذب!... «كما تشاء»! لقد حزمتم دماغها بأسوأ من أسلاك شائكة. إذا أردتَ أن تسلم حياتُك، فعليك أن ترسل مارينا إلى هنا.

ــ إن مارينا حرة لكن الأفضل لها أن تبتعدَ بقدر الإمكان عنك...

ارتمى إيفان على راخمانينوف: فالتقفه بعض الفلاحين ولووا يديه وراء ظهره.

قال الحارس العجوز: أمسكوا به جيداً! يجب عدم الإساءة إلى المعلم.

كان يتكلم بلهجة رجل يعرف قيمته، ويشعر المرء أن الفلاحين يأخذون آراءه بعين الاعتبار. وتابع الحارس:

ــ وأنت يا سيريوجا راخمانينوف، لا تزعج الشعب من أجل لا شيء. وليس لديك هنا ما تفعله.

أخرج صوت الحارس المطمئن راخمانينوف من غفلته، فقال للعجوز:

ـ كان بودّي أن أتخلى لكم عن أملاك «إيفانوفكا»، لكنها مثقلة بالديون. وليس بإمكانكم أن تدفعوا هذه الديون طيلة حياتكم.

أجاب العجوز بلهجة باردة: لا تقلق أيها المعلم، سنأخذ بأنفسنا ما نحتاج إليه. أنت تملك، وحدك، أكثر مما نملك جميعنا. أما بالنسبة للديون، فلا تقلق، إذ أنها ستمتص من أجلنا. وليس عليك إلا أن تعزف موسيقاك. وبما يتعلق بأمور الأرض فدعْها للذين يعملونها.

هزَّ راخمانينوف رأسه «كلاً» ثم استدار واتجه نحو عربته.

صرخ إيفان: أنت تهرب؟ سأجدك حتى في المدينة.

لم يجب راخمانينوف. وقد جلس إلى المقود وألقى نظرة أخيرة على عشّه المسلوب وأدار المحرِّك. كان قد غادر «إيفانوفكا» بعدة طرق ـ راكباً «تليغة»[1] أو عربة تنقل أو سيارة ـ لكنه لم يشعر في السابق، كما يشعر الآن، بهذا الألم.

من جديد، اجتاز الحقول غير المحصودة والمباني المحروقة. ها هي الجرارة المقلوبة، ذات العجلات المرتفعة في الهواء، زمراً بائساً لأحلامه التي لم تحقق بحياة ريفية مستقرة. ربما تذكّر حديثه مع شاليابين: بالطبع، ستفلس المصارف، أما الأملاك العقارية؟...

* * *

أُنجزت «ثورة أكتوبر الكبيرة»، وابتدأت مرحلة تاريخية جديدة. لكن الشعب الذي أحبط نير العبودية كان يعلم أن المعركة لم تنته بعد وأن العدوّ لم يكن ينوي التخلي عن أسلحته، وأن النصر النهائي يتطلّب تضحيات لا تحصى وحماماً من الدم وتوتّراً يتجاوز قدرة البشر وآلاماً تجل عن الوصف.

لم يتعرَّف الملحن، الذي تنبّأ بوقوع الثورة في لحنه «المياه الربيعية»، على تلك الثورة في ذلك الوابل الخريفي. كان الفجر قاتماً بعد ظلمات الليل الروسي. ونبعت موسيقى الثورة، تلك الموسيقى التي لم يسبق لأحد أن سمعها، من أصوات الخطباء الخشنة والأعلام الحمراء التي كانت تخفق في الريح وخُطى أفواج المقاتلين الإيقاعية التي تصدي على الأرصفة والأغنيات الباسلة المليئة بروح التضحية. ولكن ضمن هذه السنفونية الصباحية، لم يُخصص دور لآلة البيانو.

* * *

كان للمساء الهابط من أول شتاء ثوري في موسكو، رشقة بنادق وكان الزجاج يهتز قليلاً. وكان راخمانينوف ينظر من نافذة شقته إلى جادَّة «ستراستنوي». كان ثلج جاف ومحبَّب يتساقط مائلاً فيغطي الممرات، تحت شجر الزيزفون القاتم والحور، ناصع البياض نظيفاً. وكانت الريح تلوِّح بعلمٍ أحمر علّق على منزل أعمدته ذات طراز امبراطوري.

سُمع طرقٌ شديد على الباب. ففتحت مارينا. وإذ برجل بئس ـ يرتدي معطفاً قديماً مجعَّد الياقة وقبعته تشبه الياقة وحزاماً جلدياً من أحزمة الجيش فوق معطفه ـ يقول بصوت قوي:

ـ يا رفيق راخمانينوف لقد وضعت الحراسة عليك.

ـ سيحضر حالاً.

وأغلقت مارينا الباب في وجه القادم. ارتدى راخمانينوف معطفه في البهو وعقد منديلاً حول رقبته ووضع قبعة من جلد الخروف وقد انحنى ظهره كثيراً ونحل.

ـ يا مارينا، هل تملكين حزاماً من أحزمة الجيش ـ فلستُ أبدو ثورياً بما فيه الكفاية ألم يكن في صوته أية سخرية.

ـ ولماذا ينبغي أن أملك واحداً؟

ـ ربما كان «إيفان» يملك واحداً لا يحتاج إليه؟ إذا كتبت له، اطلبي منه ذلك. وأبلغي ناتاشا أنني سأعود بعد ساعتين.

ذكّرت مارينا: هل أخذت القفازات؟

هبط راخمانينوف الأدراج مرتدياً القفازات في يديه الجميلتين والكبيرتين.

كان ينتظره بالقرب من الباب رئيس لجنة مبنى «تشرنياك»، وهو ساعاتي في أوقات فراغه.

أنَّبَ راخمانينوف لتأخره قائلاً: النظام يتعثر، يا رفيق راخمانينوف.

أجاب راخمانينوف بهدوء: آمل أن يصبح صارماً تحت قيادتك.

وعده «تشرنياك»: سأصنع منك رجلاً أيضاً. أنت مسؤول عن القطاع بالقرب من جادة «سترستنوي».

استدار راخمانينوف حول زاوية منزل، وتمشى على الرصيف، رافعاً ياقة معطفه التي لم تكن تحميه قط من الهواء القارس والجليد العاصف. واستمع إلى صفيق قماش الأعلام الحمراء وزئير الهواء. لم يكن هناك أي مارّ أو عربة أو سيارة في الشارع. ولم تكن القطارات تعمل. وبالقرب من شارع «نيكيتكاي»، لم يتوقف التراشق بالرصاص.

سمع صوت إيقاعي خافت: كان ذلك طرق أقدام عديدة

---

(١) عربة روسية بأربع عجلات.

متتالية على الرصيف وما لبثت أن خرجت من شارع «بولشايا دميتروفكا» مجموعة من الميليشيا العمالية ببنادقها الموشحة ومرّت هذه المجموعة بالقرب من راخمانينوف فشاهد وجوهاً غير حليقة، نحيلة هادئة لكن أحداً منهم لم يتكرّم بالقاء نظرة واحدة عليه كان الرجال ينظرون أمامهم، نحو البعيد الذي لن يعود منه عدد منهم. وتملّكه شعور غريب ومعذّب يشبه الحسد وقال لنفسه: هكذا يصنع المرء العمل الرئيسي، العمل الفريد في حياته، دونما شكوك أو تردد.

لم يكن قد صمت بعد صوت الكعوب على الرصيف الثلجي حتى خرجت من شارع «دميتروفكا» نفسه، عربة مصفحة متجهة نحو شارع «تسفرسكايا». وكانت تتبعها شاحنة تحمل مسلحين بقمصان جلدية. كان يبدو أن هناك، في هذا الاعصار الأبيض تدور معركة عنيفة...

وعرف راخمانينوف، من بين المقاتلين، إيفان... لا شك في أن هذا الأخير لم يَنْسَ وعده «بأن يلاقي راخمانينوف في المدينة».

اصطدمت نظرة إيفان بجارس دفاع المبنى وكان يصعب القول بأنه لم يعرف راخمانينوف. كان إيفان يتبادل الرسائل مع مارينا وكان يعرف عنوان راخمانينوف المتميز بقامته الطويلة والنحيلة. لكن إيفان لم يبح بشيء من عواطفه، بالرغم من أنه كان من السهل عليه أن يطلق رصاصة أخرى في الليل الأسود.

* * *

بعد أن وضعت ناتاشا ابنتيها في السرير، دخلت إلى المطبخ حيث كانت مارينا.

ـ ظننت أن الطقس أشد حرارة هنا في المطبخ.

ـ ومن أين يأتي الحر؟ فأنا أطبخ بواسطة حطبتين فقط. لا بد أن سيريوجا راخمانينوف يرتجف برداً.

ـ لقد أخطأ في وضع معطف الفرو في مصرف التسليف.

أخذت مارينا على نفسها: كم أنا حمقاء، كان يجب عليّ أن آخذ مكانه.

وفي هذه اللحظة، قُرع الباب. كان راخمانينوف عائداً من حراسته.

سألت ناتاشا: دون أي حادث؟

ـ دون... على فكرة، لقد رأيت إيفان.

انقطع نفَس مارينا: أين؟

ـ بالقرب من منزلنا. كان يمر في شاحنة ويبدو بمظهر المقاتل: معه بندقية وجعبة خرطوش على صدره.

ـ إنه لا يستقر في أي مكان. ها هو الآن يقترب من هنا.

ـ إن خطيبك يَعِدُ ويفي بوعده. كان قد وعدني بأن «يجدني» في موسكو، وبالفعل وجدني.

قالت مارينا ببساطة: لا تخف يا سيريوجا راخمانينوف. إنه كثير الضجيج...

اقترحت ناتاشا: سيريوجا، هيا بنا إلى المكتب.

وقالت، بعدما أغلق الباب الثقيل وراءهما:

ـ ما بك؟ هل لقاؤك مع إيفان هو ما أقلقك إلى هذا الحد؟

ـ لم يقلقني أكثر من الأشياء الأخرى. لكني لم أنس كيف ألقى بآلتي البيانو من النافذة ولكن المسألة ليست مسألة إيفان وحده، إنني لا أريد أن يطلق عليّ رجال كالحارس «تشرنياك» لقب «رفيق». لماذا لم يكن هناك من قبل رجال مثله؟ على كل حال، في عهدنا؟ من أين خرجوا؟ عليّ

قالت ناتاشا شاحبة: قل لي كل شيء.

ـ لقد بقيت فقيراً لقد ابتلعت أملاك «إيفانوفكا» جميع أموالنا. والواقع أنه لم يبق منها شيء لقد رفضوا إعطائي المبلغ الضئيل الموجود في المصرف، وهو في كل الأحوال، لن يكفي لإعاشتنا أكثر من ستة أشهر. ليس هناك ولن يكون هناك من جولات. لقد انتهت حياة الفنّان، جدياً ولمدة طويلة.

ـ حسناً، وماذا بعد؟

ـ لقد تلقيت دعوة من «السويد»، والشروط معقولة. بعد ذلك، ربما نجد عملاً آخر.

ـ رددت ناتاشا كالصدى: وبعد ذلك، ربما نجد عملاً آخر؟ ألا تخشى أن تطول هذه الجولة إلى الأبد؟

ـ لا تجبريني على أن أقول ما لن أقوله أبداً، ما لا أستطيع قوله. وهل يترك المرء وطنه؟ لكن الآن، يجب علينا أن نعيش ونحن نحسب حساب الظروف الحالية. يجب أن أجد لقمة العيش. وأصبحتُ اليوم كما كنتُ سابقاً: موسيقاراً بلا مال.

ـ إذن، سنرحل...

قطعها راخمانينوف: في جولة! إن الصباح يأتي بعد الليل، وسيعود النور والموسيقى. وسيضع إيفان جانباً بندقيته ذات الزناد السهل.

واشتعل حنان غريب في عيني راخمانينوف سرعان ما انطفأ. وتقطّب وجهه من جديد، وذلك لعدة سنوات...

* * *

كان قطار ينطلق من محطة «نيكولايفسكي». وكانت امرأة طويلة القامة تركض بالقرب من حافلة، مقتربة من النافذة

أو مبتعدة عنها لتلوح بيدها. ومن الجهة الثانية كان أفراد عائلة راخمانينوف يسندون وجوههم على نافذة الحافلة. كانت ناتاشا وصغيرتاها يبكين، وكان وجه راخمانينوف مسمراً كالقناع.

جرى القطار أسرع فأسرع لكن ركضت مارينا حتى آخر الرصيف.

اختفى ضوء القافلة الأخيرة الأحمر، فيما بقي منديلها الصغير الأبيض يلوِّح في الظلام الرطب.

* * *

في المساء، دخل إيفان بخطى سريعة إلى منزل بالقرب من منزل كان يحرسه «تشرنياك». كان يرتدي قميصاً قديماً من الجلد وقبعة جلد لا تقل قدماً. وقد دخل من ناحية جادة «سترستنوي». وصعد السلم وقرع الباب.

استقبلته مارينا من غير لطف: يمكنك القول إنك جعلت الآخرين ينتظرونك.

تظاهر إيفان بعدم سماع أقوالها وأراد أن يعانقها، لكنها تملصت من ضمته، غضب إيفان وقال: ما بك؟

ـ لا شيء... منذ أن قدمتَ إلى موسكو، لم يصلني أدنى خبر منك.

ـ لكننا كنا منهمكين بالتخلص من الأعداء. وبقينا دون نوم ليالي عديدة، ودون طعام... كيف علمتِ أنني في موسكو؟

ـ وكيف لا أعلم وأنت تتنزه في الشاحنة بالقرب من نوافذ المنزل؟

أدرك إيفان: هذا صحيح، يا إلهي، لقد مررنا بالفعل من هنا. ولماذا لم تنادني؟

ـ إن سيريوجا راخمانينوف هو الذي رآك. كان يحرس المبنى.

ـ أما أنا، فلم أعرفه ـ نظر إيفان حوله وشعر في هذه اللحظة بشظف المنزل المهجور ـ أين ذهبوا؟

ـ لأنك جئت لتزورهم؟ لقد ذهبوا في جولة.

ـ أين؟

ـ في السويد.

ـ عند البرجوازيين؟... إذن لقد هربوا، كالجرذان التي تغادر باخرة تشرف على الغرق. غير أن باخرتنا نحن لن تغرق، بل باخرتهم هي التي ستلاقي الهلاك.

ـ كفى ثرثرة! نحن لسنا في اجتماع حزبي.

ـ إنك تدافعين عنهم من جديد؟

ـ لقد ذهب لتقديم حفلات موسيقية هل تريده أن يموت جوعاً؟

ـ يجب أن يتصرف كالشعب. بم يَفْضُلُ هو الآخرين؟

ـ إنه راخمانينوف. يمكنك أن تجد نساء ورجالاً مثلنا بكميات كبيرة، لكن مثله...

انفجر إيفان ضاحكاً: لن نجد حتى واحداً!

ـ آه! كم أنت مبتذل! حسناً أيها البطل، هل تريد أن تأكل؟

ابتسم إيفان وتخلص من قميصه الأسود العتيق. ثم جلس مفرشخاً على كرسي وأخذ يلف سيجارة بواسطة ورق الجرائد.

ـ أحبك كثيراً... وأنا مشتاق لك... كل الحياة، سأظل مشتاقاً لك. وذلك بسبب هؤلاء... لقد التهموا حياتك تماماً.

ـ ها هو يعيد الكلام نفسه!... الأمر لا يعنيهم، بل يعنيني أنا. وليس في يدك حيلة. هل أطبخ لك بطاطا؟

ـ يمكنك حتى أن تقليها. فقد جئت ببعض الشحم (وأخرج إيفان من جيبه ظرفاً صغيراً) حسناً، لننسَ الماضي. أنتِ الآن عصفور طليق. فحضِّري بقجتك ولنذهب!

ـ إلى أين؟

ـ إلى البيت. إلى مُلك «إيفانوفكا». إنهم يرسلونني إلى القرية لمراقبة مسيرة الثورة.

ـ وأنا، ما شأني بهذا؟

ـ تلك مزحة مضحكة! يجب على الزوجة أن تكون بالقرب من زوجها. غداً نرسل حقائبنا ونذهب إلى المحطة.

هزَّت مارينا رأسها.

ـ لن أذهب إلى أي مكان. إن مكاني هنا.

لم يحمل إيفان كلماتها على محمل الجدّ، ولم يرَ فيها سوى نزوة نسائية عادية.

ـ وماذا تفعلين هنا؟ هل ستحرسين الفئران؟

ـ سأحرس الأملاك والمنزل لا الفئران. يكفي أن يلتفتَ المرء إلى خلف حتى يُسرق كل شيء. عندئذٍ، كيف أستطيع أن أنظر في عيونهم، عيون عائلتي؟

ـ آه! آه! «عائلتي»! وأنا، أفلست من عائلتك؟ ـ (وكبت إيفان غضبه وامتلأ صوته الفج بنعومة العجز ـ يكفي ذلك يا مارينا، أليس كذلك؟... لقد خدمت الناس حسناً...، لكنك لا يمكنك أن تخدمي أسمالاً! يجب أن لا نضحي بحياتنا من

أجل ملاعق وطناجر. هل تعتبريني أقل أهمية من جميع هذه الخِرَق؟

ــ إن الأمر لا يتعلق بالخرق، بل بالمنزل. عندما يعود الناس، يجب أن يكون لهم منزل. أما إذا ذهبت، فلن يبقى شيء من عشهم.

ــ سيبنون عشاً آخر... من الأفضل أن تفكري بنفسك وبي أنا. نحن نشيخ الآن، ما زال بإمكاننا أن نؤسِّس عائلة، لكن بعد ذلك؟ متى سيعودون، هل تعرفين؟

ــ أقسم بالله، حالما يعودون، سآخذ إجازتي النهائية وسألتحق بك أينما كنتَ.

قال إيفان وقد انبجست دمعة صغيرة وخبيثة من عينه التي شوَّهتها الحرب:

يا إلهي! كان لدي حبَّان في الحياة: أنتِ والثورة. لكن الحب الثاني فقط يحتاج إليّ ولذلك سأبقى معه. سأنظِّف المكان غداً. لقد كنت أعتقد أنك ستأتين معي، لكن من المستحيل إعادتك إلى الرشد!

ــ لقد أعدتني إلى الرشد منذ زمن طويل يا إيفان. اعتبر أنني ذهبتُ معك، لكني أخذتُ قطاراً آخر. إنتظر ذلك القطار... والآن، لا تعانِ اليأس والملل من أجل لا شيء. لقد ابتدأت بالغسيل، فأعطني ملابسك الوسخة وسأحممك أنت أيضاً بالمناسبة نفسها.

* * *

لم يكن القطار الذي يتجه نحو أعماق روسيا من رصيف «محطة بافلتسكي» يشبه إطلاقاً قطار «سهم الشمال»، الذي كان قد احتفظ بكل فخامته قبل الثورة. كانت هذه القافلة مكونة من حافلات الضواحي والبضائع وحافلات البريد وشاحنات مسطحة مكشوفة، وكان كل ذلك يعج بالناس، تدلَّت عناقيد بشرية من السلالم وامتدت على السطوح.

قال إيفان: هيا إلى اللقاء (ودسّ أنفه في كتف مارينا).

ــ سأذهب للقائك، تذكر ذلك ــ وأكتب رسائل لي ــ وقبَّلته مارينا في عنقه الأشعر.

اهتز القطار لكنه لم يستطيع الإقلاع على الفور بسبب حمله الباهظ وبعد جهد، انطلق أخيراً.

افترق إيفان عن مارينا وقفز إلى قافلة بضائع وألقى ببقجته الفقيرة على السطح وامتدَّت إليه عدة أيادٍ وهو يتسلق القطار ويجد نفسه على السطح.

كان إيفان، جندي الثورة، ذاهباً على سطح حافلة بضائع لبناء حياة جديدة في قرى منطقة «تانبوف»... (*).

(*) القسم الأول من رواية «راخمانينوف»، تأليف الروائي السوفياتي الشهير يوري نجيبين التي تصدر قريباً في منشورات دار الآداب.

دار الآداب تقدّم

في سبيل
ثقافة عربيَّة ذاتيَّة
الثقافة العربيَّة والتراث

الدكتور عبدالله عبدالدائم

بناء الثقافة القومية الذاتية شعار يحتل مقام الصدارة في الفكر العالمي والجهد الدولي اليوم. وهذا المطلب ليس مقصودا لذاته فحسب ــ سعيا إلى تأكيد الهوية الخاصة لكل أمة، وتيسيرا للحوار الخصيب بين الثقافات ــ بل هو قبل هذا مطلب لازم من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تسعى إليها كل أمة، فضلا عن كون التنمية الثقافية في الوقت نفسه الهدف النهائي لأي تنمية.

ومثل هذا الهدف الكبير يستلزم توضيح العلاقة السليمة التي ينبغي أن تقوم بين هذه الثقافة العربية الذاتية الموعودة وبين التراث العربي الاسلامي. بحيث يغدو هذا التراث ــ بعد أن تتضح فيه الأصيلة ومعالمه الانسانية الكبرى. وبعد أن ننظر إليه بعين مجددة نفاذة إلى معانيه الحقة، متجاوزة ما أصابه من تشويه وتخلف ــ مهادا من القيم المتحركة الحية التي تؤدي إلى رؤية للثقافة طريفة وتليدة معا.

وهذا الكتاب جهد أول في هذه الطريق المديدة. فبناء الثقافة العربية المرجوة جهد لا تقوى عليه قدرة الفرد الواحد أو الأفراد المعدودين، بل لا بد له من اجتماع القدرات الكثيرة سعيا وراء بناء صرح ثقافي عربي جديد. أعمدته الكبرى التراث وقد جدد، والواقع العربي القائم وقد حلل ودرس، والواقع العالمي وقد أدرك، والمستقبل العربي وقد بانت مستلزماته وأشرقت أهدافه.